رواية
سرير الغواية
أشرف المسمار

1

ليلٌ، من ليالي الشتاء الطويل الثقيل،
وحيدة ومسرعة أكاد أنزل درجات السلم من الطابق السادس بشكل دحرجة سريعة، تملأ عينيّ دموعٌ ما كونت بماء، بل ربما بنفس مكسورة مفطورة مصدومة.
عبرت ما يقارب المئة والعشرين درجة بأقل من ستين ثانية أعادت فيها الإحدى والثلاثين سنة من عمري.
هزيم خواطر ذهنية، وذكرياتٌ وهمز أفكار، وكلمات تصدر عني لا إراديًا وبصوت مسموع:
"لم حدث معي كل ذلك؟"
ألتفِت إلى يدي التي يقطر من جانبها وخنصرها دم ويقطر معه بقايا من روح منكسرة، يعود صوتي مسموعًا:
"كيف حدث معي كل ذلك؟"
ما كدت أخرج من باب البناء، وإذ بالمكان مضاءٌ بشدة، فأُغمض عينيّ إرتكاسًا،
"كيف صارت الدنيا نهارًا؟ "
قلت ذلك بصوت مسموع، لأصرخ لاحقًا :
لم يحدث معي كل ذلك؟

سكون كاذب خيم وملأ المكان الخاوي إلا مني،
ظلام الليل الدامس الكئيب وارى كل ما في المكان، يكاد لا يُبقي فيه إلا ضوء سيارة قد خبت، وشعلة سيجار بداخلها، يتناوب توهجها وخبوها مع صوت حازم .
ظلام ليلي كظم ضجيج الشارع الخاوي إلا من هدير سيارة سوداء رباعية الدفع Land cruiser، وبضع رجال يرددون:

أمرك معلم..
يخترقهم نشيج صوت بالكاد مسموع:
ماما، ماما.. لماذا تركتني؟

في غرفة ذات مساحة جيدة ولكنها غير رحبة،
وبالقرب من "كومود" خاوٍ، يرقد السرير الابيض الواسع غير المريح الذي يتكئ على الحائط خلفه بلونه البني، يغطي منتصفه مساحة خشبية يكاد يفقؤها العديد من الثقوب والأجسام.
مستلقيه،
أمامي نافذة، نصف مفتوحة، يكاد لا يُرى منها شيءٌ بغير لون الليل رغم اتساعها وعدم تغطيتها بتلك الستائر البنية الداكنة خاصتها.

يجلس على المقعد قرب النافذة امراة خمسينية وشاب عشريني متجهمي الوجهين، بملامح غير واضحة .
أتململ يمينًا ويسارًا بالكاد أستطيع الحراك بسبب ذاك القيد في معصمي، وآخرٌ على رأسي.
كأني أتمتم : "جاد"
أفتح عينيّ بثقل، أتفاجأ بما يشبه أشخاصًا بغطاء أبيض.
أفتح عينيَّ مجددًا ليتغير كل ما يحيط بي.

2

"مراد"،
وما أدراك من "مراد"، وما عَنى لي هذا الإسم، وما حرك بي من مشاعر وأحاسيس. لا أذكر من صباي شابًا سواك، فتحتُ عيني وقلبي عليك، عرَّفتني الحب والمغامرة والإثارة مع سني مقاعد المدرسة.
الآن، وبعد كل الذي جرى،
لا أستطيع ان أقول أني ما زلت أحبك، أو ربما لا أحبك.
لا أستطيع أن أقول أني تجاوزت ونسيت كل تلك الهمسات وكل نبضات القلب التي هتفت باسمك ولأجلك.
لكني ربما فقدتها،
تلك الهمسات والكلمات التي طالما بعثت في نفسي الرضا والثقة والأمان والحب، والتي كانت تلعب على أوتار قلبي وتداعبها فأشعر بأنك لنبضات قلبي لحنٌ و معزوفة أنت لازمتها وجملتها الموسيقية.
فقدت ذاك الشعور الذي طالما جذبني اليك، شعور السعادة والانتماء والثقة والأمان.
فقدتُ ذلك أنا،
وفقدتَني أنت، كما بدأت أنا، أفقد نفسي.
لا أعلم يقينًا من أنا ومن أصبحت، ماذا أريد من الحياة، ما هي أهدافي وتطلعاتي، أيّ القرارات أصوب لأتخذها.
أجهل مقدار ثقتي بنفسي، وليس أقلها ثقتي بأنوثتي وجمالي، وحتى بالمستوى الذهني الذي وصلت اليه.

كما لا أعلم يقينًا من هو الرجل الذي ألتَ إليه، هل ما زلت الرقيق القوي، الصلب الحنون، الحازم اللطيف.
أَمني وأماني وثقتي وملجئي عندما تشتد عليّ أعاصير نفسي، وعواصف المجتمع.
من أنت بالنسبة لي الآن؟ ومن ستكون؟
لا بد من أن أرسو، ونرسو معًا أيضًا على شاطئٍ وبَرٍّ صلبٍ يقيني الكثير من الأمواج والعواصف التي عصفت بسفينتنا حتى خرقتَها. ولا أعلم إن كانت ما زالت صالحة أصلًا لنخوض فيها سويًا غمار الحياة: حبيبين .

حبيبي، هل ما زلت حبيبي؟
هل ما زلت "مراد" فارسًا لتلك لمشاعر الحب والعاطفة القوية والعقل الراجح، التي كانت تسكنني بتأثيرك؟
هل ما زلت مرادفًا للشغف والتضحية والغيرة؟
أو أقول ذاك اعتيادًا لأنك كنت كذلك.

حياتي أنت... هل ما زلت حياتي؟
هل ما زلتُ أرى الدنيا من خلالك، أو بالأحرى أراك الدنيا والهدف والوسيلة فيها أيضًا ؟
قد تكون أنت أجمل وأسوأ ما لدي في حياتي هذه التي أصارع بها نفسي أولاً والواقع والمجتمع.

أذكر أيامنا الأولى سويًا عندما كنت أسرق وقتًا من المدرسة لألقاك، أسرق لحظة من عيون الطلاب والمعلمين والأهل، لأحدثك ولنرسم خططًا لنلتقي.
نتراسل بقصيصات ورق، نجهد لإيصالها لبعضنا البعض. تارة نضعها في ثقوب جدران اعتمدناها صناديق بريد، وتارة مع أحد زملاء المدرسة الثقاة، ساعي بريد الشوق واللهفة.
لطالما كانت الرسائل الورقية إحدى أهم لغات العاشقين.

تفتقد الرسائل الالكترونية اليوم الإحساس والحياة الموجودين في الكلمات المخطوطة يدويًا بالحبر.
تفتقد ارتعاشة القلم الذي يتناغم مع ارتعاشة القلب، تفتقد جمال الخط العربي وأسلوب رسم الحروف الخاصة بكل شخص والخاصة بالحب والمحبين.
نتواعد فيحلّق قلبي فرحًا، ويأخذني إليك يملؤني الفرح والجمال.
لطالما انعكس الحب عند المرأة ، جمالًا على وجهها. الحب يجعلنا أجمل بكل تأكيد. عندما نحب تتغير نظرتنا للأشياء وبالتأكيد نظرتنا لأنفسنا، ثمة جمال وسعادة تملأ العين عندما نحب، فينعكس ذلك جمالًا على كل ما تقع عليه أعيننا.
حتى إحساسنا بالوقت، يختلف.
كذلك نظرتنا وتقويمنا للأشخاص.
الحب، يصنع جمالًا أينما حل.
أنظر إلى وجهي بالمرآة، أشعر بذلك وأنا أضع القليل من الكحل في عينيّ، يا من تعشق العيون الكحلاء أو كما سمعتك تقول مرارًا أنك تحب الكحل لأنه ارتبط بذاكرتك بعينيَّ ولطالما أبدو بعينيك الأجمل.
كنا نتواعد ونتقابل، أسرع إلى لقياك قبل الموعد، أجدك تنتظرني وثالثنا السعادة، وكأننا لا نثق بتوقيت الساعة بل نعتمد توقيت الشوق بيننا ..
تمسك بيدي اليمنى، لطالما أحببت أن تكون دائمًا يميني، لأشعر أن بيدي الثانية العالم وما فيه، الدنيا طيعة خفيفة في يدي طالما تمسك يدي.
يملؤنا الحب، لا نمل من الأحاديث والأماني والأحلام والضحكات.
أسترجع في ذاكرتي خواطر وأفكار أيامنا الأولى، بدايات الحب، وما أجمل البدايات وما يليها من الجنون والحلم.
حلمت بالحياة الهانئة، الجميلة والسعيدة التي صرت أفتقدها اليوم.
واستعضت عن جنون العاشقين الذي كان بيننا، جنون المشاعر والأفعال ، بجنون المزاج والتعصيب والقلق والأرق حاليًا.

أحببت تصرفاتك غير المنطقية وغير المحسوبة عندما نكون معًا. كونك شابًا فريدًا في شخصيتك وحضورك وحبك. لطالما كانت تصرفاتك وأفعالك مجنونة.
أفضل جنونك هذا كثيرًا على تصرفاتك وقراراتك الجادة المبنية على ادعاء مصلحتنا في مستوى اجتماعي واقتصادي معين يوجب السفر والهجرة، ووحدتي.
أسترجع في ذاكرتي الحب وكيف نترجمه... اهتمام، وحنان يظهران في كثير من التفاصيل:
تغمرني، أفكر بك كل الوقت، أرغب بإسعادك، أشعر بالتوتر والخوف عليك، أهدأ عندما أحدق بعينيك، أطير إن لمست يديك.
ولا يغيب عني اهتمامك الواضح ونظراتك التي كانت تتابعني، وابتسامة شفتيك، ودقات قلبك عند سماعك صوتي، ورومنسية صوتك ومفرداتك تحدثني.

زوجي، وما زلت زوجي. على الأقل "على أعين الناس".
كم ابتهجت وانتشيت وفرحت عندما توج هذا الحب بفستان أبيض، حلم كل فتاة. بدوتُ بإطلالة راقية ساحرة، ناهيك عما بدا قلبي ولحن نبضاته، وما عبرت عنه عيناي، وما سحرت به يداي، كنت أشعر أن كل ما ألمسه ونلمسه معا، يزهر.
كنت أشعر باحتفال آخر في كياني، يفوق ذاك العرس وما فيه.
كنت فتى أحلامي الذي طالما حلمت به.

فستاني الأبيض، وكل العرائس تختار ذلك، وأنا التي قبلت بصعوبة بهذا اللون، كنت أرغب بلون مختلف، ألا أشبه غيري من الفتيات والعرائس.
من منزل أهلي الي بيتنا الزوجي، كنت عزائي وعوني وأنيسي ومؤنسي .
أراد أبي أن يزيح عنه كاهل بقائي مراهقة عزباء، في غياب أمي التي توفيت؛ رغم محاولات خالتي دائمًا ان تكون جانبي.

تزوجنا، ولم يدم كل ذلك الهناء، لم يدم ذاك السكن والسكينة التى استوطنتني بوجودك قربي. فقدت كل ذلك مع سفرك، حتى بات زواجنا محكومًا بمواعيد للقاء.

ما زلنا نتواعد، بعد الزواج، ونتقابل، هذا ما أراه، وهو كذلك. لأننا لا نحيا معًا كزوجين، نتواعد في موعد إجازة تقضيه معنا، أو في رحلة سفر وعمل خارج لبنان.

نتقابل سويًا أو برفقة العائلة والأقارب في أوقات وجودك المؤقت والسريع بيننا في لبنان.

نتكلم نتبادل أطراف حديث بدأ ينضب.

سفرك الدائم إلى إفريقيا وعملك هناك، التهم كثيرًا من الأمور المشتركة بيننا والاهتمامات المشتركة والأوقات المشتركة.

نتواعد لأيام، كل بضعة أشهر. عندما تأتي في إجازة من عملك، أحب أن أسميها كذلك، "مواعيد"، لما في ذاكرتي من لذة ورونق لمواعيد خلت، كانت تجمعنا والشغف ثالثنا.

صرت أفتقد ذاك الدفء في كلماتك وهمساتك، حتى صرت لا أشعر أو لا أفهم معنى كلامك حاليًا. فقلما نتفق على أفكار وهواجس ووجهات نظر مشتركة.

الكلام الذي لا يقوله القلب يفتقد الدفء، وهو كلام جاف بارد متعب، يلزمه تجاوز الكثير من الحواجز التي تراكمت بيننا وأصبحت حاجزًا يصعب تجاوزه.

نسينا الحب والفرح ورقة العشاق، قسينا على أنفسنا وعلى بعضنا البعض، وبنينا تلك العوائق بيننا، من دون أن نلحظ ذلك فعلًا حتى وكأنها قد أصبحت جبلًا يصعب تجاوزه. وربما ما يزيد كل ذلك سوءًا، إحساس كلٍ منا، أن أحدنا لا يقدم للآخر الكثير.

أن كل منا قد يكون قادرًا على الاستمرار وحده، من دون الآخر، ومن دون أن يسبب ذاك الغياب أي نقص يُعتَد به.

من دون أن ندري، نسينا أنفسنا وما جرى لنا وأين وصلنا.

نتخاصم ونتصالح ثم نبدأ من جديد وقد يكون هذا شأن الأزواج كلها عمومًا، ولكن:

عندما نفقد الشغف، ونشعر أن وجود الآخر في حياتنا لا يقدم لنا الفرق الكبير. وأن الحياة يمكن أن تستمر وربما بشكل أكثر راحة وأقل توترًا وغضبًا دون هذا الشريك، عندما لا نتقبل أخطاء وزلات هذا الآخر بل وربما نضع تفسيرًا سلبيًا لتصرفٍ قد يكون عفويًا طبيعيًا، ونفاقم نظرتنا السلبية اتجاه هذا التصرف وبالتالي للآخر.

عندما يغيب الاهتمام وحتى العتاب والسؤال عن تصرفات كهذه.

عندما يتغلب الألم على الفرح، ويتغلب الجفاء على القرب، ونفتقد تلك الأجنحة التي طالما كانت تحملنا لعوالم صارت اليوم حلمًا، ونستبدلها بقيود، قيود حقيقية أو من صنع ذاك الفتور الذي خيم علينا.

عندما يحدث كل ذلك، وأكثر...نكون قد سلكنا طريق اللاعودة في انهيار هذا الحب وهذا الارتباط. نكون قد ظلمنا هذا الحب ويقينًا ظلمنا أنفسنا وظلمنا كل الأيام والذكريات والآمال التي شُيّدت.

تغيب ليالي الأنس، وتصير الليالي موعدًا لسهرات صمت ودموع وخيبة.

ويصبح المنزل الزوجي نارًا بدل أن يكون جنة، أو أقله سلامًا.

أين ذهبت تلك اللهفة؟ أين الجنة التي أدخلَنا فيها الحب و صنعناها بالكثير من الذكريات الجميلة اللذيذة.

كيف نعيد كل ذلك؟

كيف نعيد شبابنا الذي بدأنا نفقده. وقد يكون شباب القلب أهم من سنوات خلت من عمرنا الزمني.

في العقد الثالث من العمر نبدأ بالتفكير جديًا بالعمر، كما ونبدأ بملاحظة آثاره، آثار الحزن التي تترجم أخاديدًا في وجوهنا: بعضها صنيعة الدموع، وأخرى صنيعة الألم وتعابير الغضب وتقطيب الحواجب وغياب الابتسامات.

في العقد الثالث من العمر نبدأ بالتفكير جديًا، أننا قد نكون أمضينا ما يقارب نصف عمرنا من دون أن نلتفت لذلك، من دون أن نلتفت لأنفسنا، من دون أن نعطي أنفسنا ما نستحق، من دون أن نحب ذاتنا كما تستحق،

من دون أن ندللها، من دون أن تكون هي الأولوية. كل ذلك لا من باب النرجسية أو الأنانية يقينًا ،بل من باب: أن لنفسك عليك حق.

لطالما سمعت أمثال خالتي، "ل بعيد عن العين بعيد عن القلب".
لا يمكن أن يستمر زواج عن بعد، زواج أون لاين، زواج دون أن نتشارك تفاصيل الحياة، نستيقظ معًا ونصنع نهاراتنا معًا، ونأكل معًا وننغمس حتى بتوافه الأمور وروتين الأيام، معًا.
أكره إفريقيا التي أخذتك مني، وبالتالي أخذتني منك.
أكره عملك الذي تقدسه، و الذي أخذ أولوياتك واستبدلني وحل مكاني.
أكره محاولتك إشغالي بوظيفة أو عمل لا يحقق طموحاتي وأحلامي. عمل أردتَه أن يلهيني عنك، ويقتل فراغًا زمنيًا أشعر به. وظيفة بدأتها بعد عدة اعتراضات منك تمنعني عن مزاولة العمل بحجة أنه إهمال للأمومة والمنزل، واجبي الأساس برأيك. من دون أن تستطيع أن تدرك فعلًا أن المرأة لا شيء يثنيها عن الأمومة وحتى عن منزلها وإن كانت امرأة عاملة.
رغم أني أُثَمّن دعمك لي وأمتن لوقوفك معي وقربي لإكمال دراستي الجامعية.
بعدما وقفتُ أنا حازمة حينها، في مواجه ما سمعته مرارًا:
"أن لا تؤخَذ دراسة المرأة على محمل الجد وأن ذلك لا يفيد الا بزيادة فرصها لتكون زوج وليس لتحقيق موقعها كإنسان أو كامرأة فاعلة.".
هل تذكر كم بخَّست فكرة أن أعمل، وبخست إمكاناتي العلمية والمهنية.
وأن عملي الأهم هو الأمومة.
حاولتَ إقناعي أن العلم والعقل أمران طارئان على المرأة، رغم تشجيعك لي ودعمك في مجالات شتى. والاهتمام المهني عندها أمر عابر مستبعد في حياتها التي يجب أن تُسخر وتُوجه للمنزل والعائلة. أدخلتني في دوامة من هذه المتناقضات. التى كنت أنت أيضًا تعاني منها.

الصراع ما بين احترام المرأة واحترام حقوقها ومكانتها المرموقة في المجتمع عمومًا وفي مجال العلم والثقافة والعمل بمختلف مجالاته، وما بين الفكر التقليدي بأنها أم وربة منزل فقط.

أحتاجك، أحتاج وجودك، أحتاج أن أشعر بحركتك وأنفاسك وأثرك في المنزل وعلى الأثاث، على ملابسي وعلى روحي وجسدي. أثرك وتأثيرك الإيجابي عليَّ،
أحتاج أن أشعر بك سندًا وأنيسًا وشريكًا في تفاصيل حياتي اليومية، وملاذًا أيضًا.
أحتاجك الصديق المقرب، والخبير في الأمور الحياتية والعاطفية، والرفيق في رحلة التسوق، وحتى الشريك في بعض الأفعال المجنونة التي تراودني وأراودك فيها.
أحتاج حبك غير المشروط، "مراد"،

لم حدث كل ذلك!؟

كما أحتاجكِ ماما ، لم متِّ وتركتني أنت أيضًا.

3

في تلك الغرفة الرحبة،
أتململ يمينًا ويسارًا، بالكاد أستطيع الحراك بسبب أنبوب "المصل" الموصول بوريدي في المعصم، وآخر على رأسي يزودني بالأوكسجين عبر قناع موضوع على الفم والأنف من جهة، ومن الجهة الأخرى موصول بمأخذ على الحائط خلفي.
أصابع أحدهم بمستوى معصمي الأيمن تجس نبضي.
أفتح عينيّ جزئيًا، أمامي طبيب بلباس أبيض على كتفيه سماعة. وجهه حسن يعلوه ابتسامة:

- الحمدلله على السلامة

انا د.أشرف، الطبيب المشرف على علاجك حاليًا، لقد تعرضت لحادث سير تسبب بارتجاج دماغ.
أنت الآن أفضل، لا خطر حقيقي عليك أو على حياتك. فقط تحتاجين لشيء من الراحة والهدوء .

-أتوجه إليه مستفسرة: ماذا تقصد بارتجاج الدماغ؟

- الارتجاج هو إصابة عضوية طفيفة في الدماغ تؤثر على وظائف المخ. عادةً ما تكون التأثيرات مؤقتة ولكنها قد تشمل: الصداع ومشاكل في التركيز والذاكرة والتوازن والتنسيق.

- لا أذكر شيئًا مما جرى، كيف حدث ذلك؟

- عادةً ما تحدث الارتجاجات بسبب ضربة على الرأس. قد يسبب الهز العنيف للرأس والجزء العلوي من الجسم أيضًا ارتجاجًا.

- ويدي ؟ لما هذا الضماد والجبيرة؟

- تعانين من كسر بمستوى الخنصر، بالإضافة لجرح.

نسمي هذا الكسر طبيًا: كسر الملاكم.

هذه الإصابة غير منسجمة مع رض الرأس التالي للحادث الذي تعرضت له، وكأنها حدثت بآلية ووقت مختلف.

- بعد نظرة شرود وصمت.

بالتأكيد حصلت في أثناء الحادث، بطريقة ما .

وهل كنت أهذي؟ هل قلت شيئًا ما ؟

- كنتِ بحال فقدان للوعي.

- أشعر بالارتباك، بالضبابية. لا أذكر شيئًا مما يتعلق بالحادث و بالإصابة، لا أذكر الكثير من الأمور أيضًا. أشعر بالدوخة وكأن نجومًا كثيرة تغيب وتظهر، تملأ الغرفة وناظريّ كذلك.

كما ألاحظ تداخُل كلماتي عندما أتحدث. وتخونني الإجابة عن بعض الأسئلة فأتأخُر بالرد، أشعر بعدم الإتزان، بالإضافة للنسيان.

ما الذي حدث لي تمامًا دكتور؟ هل تحدثت بشيءٍ ما؟

- يجيب الدكتور: كنتِ تكررين تمتمات و غمغمات، لا شيء مهم أو ذو مغزى.

كررتِ اسم "جاد".

- "جاد"، ابني، هدية الله الي، زينة الحياة الدنيا، دوائي في هذا الزمن، وعلاج أحزاني، سعادتي ومهجة قلبي.

نطقتُ بكل ذلك وكأنما جاد هو فعلًا جرعة دواء منشط.
أين هو؟ هل هو بخير؟

- بخير بخير، لا تقلقي. فقط إبقِ هادئة، لم تتماثلي للشفاء بعد.

الآن، أتركك لتنالي قسطًا إضافيًا من الراحة لاستكمال العلاج، على أن تغادري المستشفى في أقرب وقت ممكن عندما تسمح حالتك الصحية بذلك. علمًا أن هناك ضرورة جدية لاستكمال المتابعة الطبية.

على باب غرفتي هذه التي أتطبب فيها، يلاحظ وجود رجل طويل ممتلئ الجسم بعضلات واضحة ونظرات ثاقبة تجول في المكان، ردة فعله سريعة على كل ما يحدث حوله. يقف قربه رجل وامرأة يتبادلان أطراف حديث.
ما كاد يترك الدكتور الغرفة حتى دخلاها، وما كادا يفعلان: حتى سُمع ما يشبه الجلبة و الصراخ، صداح وعويل ونحيب يكاد لا يفهم منه إلا :
اخرجي من هنا، لا أريدك قربي، لا أريدك في حياتي مجددًا.
يعود الدكتور سريعًا برفقة ممرضة، يطلب ممن كان موجودًا في الغرفة مغادرتها، يشير للممرضة فتسارع إلى إعطائي حقنة وريدية مهدئة.
وعلى باب الغرفة مجددًا، يكرر الدكتور متوجها للمرافقين قائلًا:

قد تستمر الأعراض، بعضها أو كلها، عدة أيام أو أكثر بعد الإصابة.
أهمها الشكاوى المتعلّقة بالتركيز والذاكرة.
سهولة الاستثارة وتغيرات الشخصية الأُخرى.
الحساسية للضوء والضوضاء.
اضطرابات النوم.

مشاكل التكيف النفسي والاكتئاب.
اضطرابات التذوق والشم.
يُمكن أن يُؤدّي الارتجاج إلى تغيّرات في المزاج، بما في ذلك الغرابة، وفقدان الاهتمام بالأنشطة أو الأشياء المفضلة، والبكاء، وإظهار المشاعر غير المناسبة للموقف. إضافة للأرق والخمول والتهيّج.

بمحاذاتهم الرجل "الحارس" يقول :
ستسير الامور على ما يرام.
" المعلم وصاني ما تحتاجوا شي".
يغادر الدكتور تاركًا المرأة الخمسينية تحدث الشاب العشريني عني :

- "حاتم"، "لا أشك أبدًا بأنها مصابة بالعين، أو حدا كاتبلها هي و"مراد" وعم تفش خلقها فيّ لذلك خاطبتني بقسوة هكذا"

من الضروري أن نسعى لفك هذا السحر.
ولكي تزداد الأمور سوءًا، فقد سافر اليوم "مراد" .

- يجيب "حاتم":

لا أعلم، ولا أستطيع أن أشغل بالي بالكثير من الأمور.
تعلمين أني لا أحب أن أدخل في جدال كهذا أو تحليلات. أكثر ما يهمني أن "مراد" أعطاني باقي المال الذي أحتاجه، ولا أهتم بأكثر من ذلك حاليًا.
لذلك لا أستطيع التعبير عن رأيٍّ بحرية في كثير من الأمور.

4

كان صباح اليوم الثالث في المستشفى مختلفًا كليًا.
أشعر بالراحة، لا آلام تعكر صفوي.
الغرفة بدت أكثر جاذبية في الكثير من التفاصيل، يبدو جليًا أنه قد أُعتني بشكل جيد بهندستها، من حيث التصميم والألوان وحتى الأثاث، الذي وإن كان أثاث مستشفى، غايته العناية الصحية لا الرفاهية بوصفها أولوية.
الغرفة ذات مساحة جيدة نسبيًا، فيها سرير أبيض واسع مريح، إلى جانبه "كومود" خشبي ، الحائط خلفه، باللون البني، يغطي منتصفه مساحة خشبية تعطيه شيئًا لافتًا من الجمال، وإن احتوى على ثقوب عدة تخرج منها مآخذ للأوكسجين . أضف إلى ذلك مصدر اضاءة أشبه ب"لامبادير"
أمامي نافذة واسعة، وكوني في الطوابق العليا من المستشفى، تتمادى الرؤيا مع السماء بلونها الأزرق: أحد الألوان الهادئة الذي يمنح شعورًا جيّدًا عند رؤيته.
هو لون مرتبط بالإلهام والروحانيّة. ويحمل معاني الاسترخاء والراحة والابتعاد عن التوتّر والتوازن، وقدرة التواصل مع الآخرين، وهذا كل ما كنت أبحث عنه.

يتمادى مع الستائر ذات اللون البني وهو كثيرًا ما يشجع على النظام والتنظيم. كما ويمثل هذا اللون الأمان والحماية، وملجأ من فوضى العالم الخارجي، ويزيد الشعور بالانتماء.

ولعل كل ذلك يؤكد أننا نرى الأشياء من خلال روحنا و هواجسنا واهتمامنا، أكثر مما تمثله هي بذاتها.

استيقظت صباحًا، وحيدة، وبعد أن مارست بعض من طقوسي الصباحية المعتادة المتمثلة بالعناية بنفسي من دون تكلف، حتى وإن كنت في المستشفى بالإضافة لخلوتي بنفسي والتأمل.

يقطع عليّ صوت طبيبي الذي يرافقه طبيب آخر.

- كيف حالك اليوم، أجدك أفضل بكثير.

- نعم أنا أفضل، أشكرك. أحدثه بكلمات لم يغب عنها، حتى في أثناء المرض، نبرة ذاك الصوت الناعم الجذاب التي أتميز به، أشعر بالكثير من الهدوء.

- هدوءك الزائد متوقع، ذلك من تأثير الأدوية العلاجية التي تُسَرّب وريديًا لك. يجيب الطبيب.

- لكني لا أتذكر الكثير من التفاصيل.

أقول ذلك وإن كان في قرارة نفسي شيء سلبي لا أرغب في استرجاعه.

- يتدخل الطبيب الآخر قائلًا :

يسوغ ذلك الأعراض التالية لارتجاج الدماغ، طبيعي جدًا ذلك.

- أثق أنني سأتجاوز كل ذلك، لطالما كنت أتمتع بالقوة والثقة بالنفس.

أقول وابتسامة تزين محياي، أما سمعت بمقولة :

ما لا يقدر عليه الشّيطان تقدر عليه المرأة.

- تتمتعين بروح الدعابة أيضًا، بالإضافة لعفويتك، وايجابيتك، ولا يخفى عليّ أيضًا قوة شخصيتك، وجاذبيتك أيضًا.

على أي حال، قد تحتاجين لبعض جلسات دعم نفسي سأكون المشرف عليها.

- أجيب: كلنا بحاجة للدعم النفسي.

ليس فقط بعد ارتجاج الدماغ، كثيرة هي الاضطرابات النفسية التي يعاني منها مجتمعنا، كما الأمراض النفسية التي ليست قليلة. ولكن مجتمعاتنا تنظر إلى المريض النفسي على أنه مختل عقليًا فينصبون له الحواجز الاجتماعية خوفًا منه أو حتى من التعامل معه.

بالمناسبة أنا خريجة علم اجتماع من إحدى الجامعات المرموقة.

- يستكمل الطبيب: المرض النفسي شبيه بالأمراض العضوية التي قد تصيب الإنسان في أي وقت. وهي أمراض يمكن علاجها. ولكن الكثير من المرضى يهابون التردد على الطبيب النفسي خوفًا من نظرة المجتمع لهم، خوفًا من نعتهم بصفة الجنون التي تَسِم كل من ارتاد عيادة طبيب نفسي، ولا تكاد هذه السمة تفارق الطبيب نفسه حتى

يختم الطبيب المعالج، يمكنك مغادرة المستشفى اليوم.

- تقصد أستطيع المغادرة فورًا.

- ليس بهذه السرعة، كما لا بد من العودة بعد أسبوعين لمتابعة كسر الاصبع في يدك.

هذا الكسر يحتاج لأربعة أسابيع ليشفى، عادةً الكسور تحتاج لفترات مختلفة للشفاء. يختلف ذلك بحسب العظم ومكان الكسر، قد تمتد مدة

إندمال الكسور حتى اثني عشر أسبوعًا أو أكثر، كما في كسر الفخذ وكسور العظام الطويلة في الطرف السفلي.

بالعودة للكسر في إصبعك الخامس، الخنصر، كسر الملاكم يسمى، هل ضربت أحدًا في أثناء الحادث؟ يقول مبتسمًا.

هو يعرف بكسر الملاكم أو كسر المتشاجر، وذلك لأنه يحدث عند استخدام قبضة اليد في ضرب جسم صلب، هكذا تحدث هذه الإصابة، ولذلك سميت بهذا الاسم. لذلك لا يبدو أبدًا أنه إصابة بسبب حادث السير الذي تعرضت له.

- اصبعي*!!!* ضربت أحدا*!!*

بينما يرتفع الحاجبان و ينحنيان. وأشعر بتجاعيد أفقية تظهر بعرض جبهتي. أفتح جفوني حتى يظهر بياض عينها. يسقط الفك مفتوحًا وتكاد تفترق الأسنان من دون شد أو توتر بالفم.

تبدو علامات المفاجأة والتوتر. أحاول تجاوز كل ذلك بابتسامة.

كان يجب أن أضرب من تسبب بالحادث، لكني شاهدت رجالًا أشداءً أشبه بالحراس الشخصيين للشخصيات، فتراجعت. ترافق قهقهتي كلماتي.

- يقول الطبيب: بالمناسبة، شاهدت بعضًا من هؤلاء مرارًا عند الباب، كانوا متعاونين جدًا وقد أنهى أحدهم كل ما يتعلق بالأمور الإدارية والمالية خاصتك في المستشفى.

المسؤول عنهم، "المعلم" كما ينادونه، هو من صدمك بالسيارة، أو بالأحرى أنت من اصطدم بالسيارة، بالكاد كانت السيارة تتحرك، وإلا لكانت عواقب الحادث وخيمة جدًا عليك.

يضيف ممرض مرافق للطبيب، "المعلم" شخصية معروفة نافذة، قوية، التقيته عدة مرات في ظروف خاصة. هو من الرجال الذين يظهرون جدية عالية وقوة وتسلط في الشكل والمضمون.

رغم ذلك يساعد الكثيرين ممن يحتاجون المساعدة، خاصة المقربين منه، هو سخي وكريم.

يعمل في تجارة السيارات، ويقال أنه شريك في متاجر مجوهرات ومتاجر للأزياء. ويقال أيضًا أن كل ذلك لمآرب أخرى.

أحدث نفسي، لطالما أثارت فضولي هذه الشخصيات.

يهم الكادر الطبي بالمغادرة بينما يدخل آخر قائلا:
انا "حاتم" أخو "مونيكا", شكرًا لكم، متوجها للأطباء.
يقتصر حديثه على ذلك، فيما يتمنى الجميع لي شفاء سريعًا، ويؤكد الطبيب على ضرورة مراجعة المستشفى لاستكمال العلاج.

- أتوجه إلى أخي "حاتم" ، اليوم سأغادر المستشفى .

- نعم، سمعت الطبيب يقول ذلك.

- ستقلني إلى البيت؟

- كما تريدين، وعندما تشائين.

ولكن عليّ أن لا أتأخر بالعودة إلى عملي، تعلمين رب العمل عندي صارم، وأخشى دائمًا الحديث معه أو طلب أي شيء منه. حتى إذن للمغادرة أو إجازة في الحالات الطارئة. هو ولي نعمتي والسبب في حصولي على قُوتي وتأمين حاجاتي.

- أعاجله بنظرة ما بين الشفقة والازدراء. فهمت، فهمت..
- يضيف "حاتم": بالمناسبة اتصل "مراد" عدة مرات، ليطمئن عنك، ولم يستوضح أي شيء عن المال الذي أقرضني إياه .

أنظر إلى "حاتم" أقول في سري: هو أخي...

الأخوة نعمة من الله، هو السند والعون في هذه الحياة الصعبة، "اخ" ينطقها الإنسان عندما يتألم، عندما يقع في شدة أو هم.
الأخ دائمًا ما يظهر الود والمسؤولية، ويقدم النصيحة والعون حتى من دون أن نطلبها، وهذا ما قد يكون من أهم ما يميز الاخوة.
ومن المؤلم أن "حاتم" لا يتمتع بذلك في كثيرٍ من الأحيان . شخصيتة شخصية الأخ عديم المسؤولية، تغلب عليه الأمور المادية أحيانًا، سواءً كان ذلك عن جهلٍ أو سوء نية.

يكمل حاتم: كذلك خالتي مرت لعيادتك هنا، ولكنك واجهتها بالصراخ.
وقد "سَكَبت لك رصاصة" عندما عادت للبيت وأكدت وجود "عين عليكِ". وذلك بعد أن حلمت أنك أصبتِ بمرض شديد عضال.
وتعلمين كعادتها سارعت إلى تفسير الحلم واستشارة من له باع في ذلك.
فجاء تفسيره : أن المرض في المنام حسب "ابن سيرين" :" عدم نقاء، ومرض في القلب، من حقد وحسد وغيرة وضعف النفس وضيق الصدر، وانسياق المرء للشهوات من دون التدبُّر أو التفكير في العواقب التي تنتج عنها، وذلك بحسب فداحة المرض.. فهذه الرؤيا تُعتبر تحذيرًا من الله، بالرجوع عما بداخله، و المسارعة بالتوبة".

بنظرة شاردة، تجاعيد الجبهة في المنتصف بين الحاجبين، وفم مفتوح والشفتان مشدودتان قليلًا أو ممتدتان ومسحوبتان إلى الخلف. :

- تحدثني لاحقًا عن ذلك، لاحقًا، أو بالأحرى لا أريد سماع شيء.

- يضيف "حاتم": فهمت، كنت أريد أن أقول أيضًا: لم نخبر أبي بكل ما جرى لكِ، كما تعلمين، هو جليس الفراش، ولا أرغب في أن أنقله مجددًا للمستشفى..

- تقصد أنك تحافظ على صحته من تأثير أخبار مزعجة. هكذا يُقال.

"آخ منك" ومن تصرفاتك.

- يضيف حاتم قابلت الرجل الذي صدمك، يبدو كرجل مافيا.

- كيف لاحظت ذلك؟ ما شكله بالضبط؟ ماذا قال؟ ماذا يعمل؟ أين هو الآن؟.

- لا أعلم ، لا أهتم. يختم "حاتم".

5

بعد خروجي من المستشفى و عودتي لبيتي، وعودة "جاد" إبني بعد أن قضى هذه الأيام التي خلت عند خالتي وتحت رعايتها. وذلك كونها الأقرب، جغرافيا إلينا. حيث أن بيت جده وعائلة أبيه تسكن في إحدى الضيع البعيدة نسبيًا عن بيروت. وقد اعتدنا أن نزورهم في المناسبات وفي أوقات متفرقة، أو عندما يكون "مراد" هنا، وأعتمد عليهم في رعاية "جاد" عندما أضطر للغياب بضعة أيام، خاصة خارج البلد، بعمل أو رحلة ترفيه، عادةً ما يرافقني بها "مراد".

خالتي التي كانت رفيقتي وصديقتي وملجئي بعد موت أمي، حاولت كثيرًا أن تعوضني عن جزء من غيابها. وأن تحميني من السحر، ومن الشيطان الذي "يتلبسني" كما تردد دائمًا عندما تستنكر أفعالي التي كثيرًا ما لا تعجبها. وكذلك آرائي التي تجدها جريئة وبعيدة عن ثقافتنا وتربيتنا.

خالتي التي كنت ألجأ إليها عندما تضيق بي الدنيا، خذلتني،

لم تأوني عندها تلك الليلة عندما كنت بأمس الحاجة إليها. كانت السبب في كل ما حدث لي، وما أندم عليه ، وما سيؤثر يقينًا في شخصيتي ومستقبلي وحتى مستواي الاجتماعي وتقديري لذاتي. صحيح أن ذلك نتج عن غبائها، ولكن بالنتيجة دفعتني من حيث تدري أو لا تدري لتلك الهاوية.

هل تآمر العالم كله ضدي ؟

أنا أعلم أن هذا الكلام هو كلام الضعيف الفاشل يعزي بهذا نفسه. لا العالم يتآمر علينا ولا الحظ كذلك. إن العالم لا يأبه لشخص لا يشكل ذرة في كينونته واستمراريته، ولا يتأثر به، وهو خارج كل حركته.

رغم ما ينتابنا أحيانًا من أفكار، لماذا أنا؟

لم كل هذه المصائب التي أمر بها وحدي من دون غيري الذين ربما يستحقونها أكثر مني؟ هم يعيشون بهناء، لا يعانون كما نعاني ولا يفقدون كما نفقد.

ما الحكمة؟ أيحبهم الله أكثر مما يحبنا؟

عادةً ما يشعر المرء بأقل سوء أو ضرر يعترضه، يحدِّث نفسه به وبمآسيه ويلوم الحياة أو الناس على ما حدث له وحتى ليصل به الحال أن يلوم الله. وبالجانب المقابل لا يشعر ولا يرى آلاف النعم الربانية والايجابيات التي نغفل عنها كما نغفل عن التوفيق الإلهي في تجاوز الكثير الكثير من الأمور التي لو حدثت لتسببت بهلاكنا.

أنا الآن وحيدة، وتؤنسني وحدتي.

خالتي لا أريدها.

"حاتم" أخي، عديم المسؤولية وهو قلما يتصل بي أو يزورني: إلا عند حاجته لشيء ما.

عائلة زوجي تسكن في ضيعة بعيدة عن بيروت وقلما يأتون إلى المدينة هنا، أضف إلى ذلك أني أجدهم متخلفين عني ، هم دون مستوى ذكائي وطموحاتي واهتماماتي.

"مراد"، الذي يحاول الاتصال بي مرارًا ويرسل رسائل قصيرة على "الواتساب"، أتجاهله، أجيبه باختصار مرات ، ومرات أخرى أثور عليه وأهزئه.

يفسر هو ذلك باختلاطات ارتجاج الدماغ المتوقعة.

لقد ازداد تواتر الخلافات بيننا ، حاولنا مرارًا إصلاح ما تهدم بيننا وفي أنفسنا، وبالتالي هدم ذلك الجدار والحاجز الذي بُني بحطامنا ربما وأبعدنا عن بعضنا.

يرن الهاتف... إشعارات كثيرة... رسائل "الواتساب".

"مراد"، خالتي، طارق، أرقام مجهولة.

كلهم يزيدون توتري واضطرابي،

طارق أحقد عليه كثيرًا، وكأن ما كان ينقصني غيره، لاستكمال سقوطي بالهاوية.

إتصال من رقم غريب، دفعني الفضول لأجيب رغم مزاجي السلبي: يقول المتصل :
مرحبا، الحمدلله على سلامتك. آمل ان تكوني بخير. أنا من صدمك بالسيارة، كلميني عند الضرورة، أو عندما تحتاجين أي مساعدة.
بأسلوب حازم جاد متعالي قال كل ذلك. وأنا أجبت باختصار شديد، وأقفلت الهاتف.
حفظت الرقم من دون اسم، بلقطة شاشة،"Screenshot".

اتصال، ثم إشعارات كثيرة متكررة...
"مراد" مجددًا، يكثر من رسائل الود والاستفسار عن صحتي وعن حالتي. يسارع بالاعتذار مرارًا،
لا رغبة عندي بالحديث مع أحد.
أرسل له رسالة قصيرة "sms" مختصرة:

- أنا بخير، متعبة قليلًا من آثار الحادث ومنك أكثر، ومن تكالب الدنيا وأهلها عليّ. ولا أستثني هذا البلد حتى، ولا القانون أيضًا الذي أجاز لك احتجازي بصك الزواج الذي لا أستطيع استبداله بصك طلاق أرغب به وبشدة.

عليّ أن أتحرر منك أولًا ومن قيودي أيضًا.

كعادته، يهمل حديث الطلاق عمدًا بعدما تكرر طرحي للموضوع وفي مناسبات وظروف شتى. ومؤخرًا كان قد سافر من دون الموافقة على الطلاق أو الاعتراف حتى بضرورة بحث خيار كهذا مجددًا زاعمًا أننا سنناقش أي مشاكل لاحقًا، وأنه حريص على تلبية كل طلباتي وإرسال المزيد من المال.

- يجيب "مراد" برسالة قصيرة أيضًا ولكن على تطبيق

"الواتساب": أفديك بروحي ونفسي، كم أتمنى لو كنت بجانبك في هذه الظروف، ولكن لسوء الحظ الحادث حصل بعد ساعات من سفري إلى أفريقيا، وفي أثناء الحادث كنت لا أزال بالطائرة.
تصدقين؟ شعرت بانقباض شديد في قلبى وحزنٍ وقتها من دون تبرير أفهمه، من دون أن أعلم حتى أنكِ تعرضت لحادث، كنت لا أزال في الطائرة حينها.

- أجيبه : كنت أرغب بتصديقك.

يحضر في ذهني من دون أن أبوح له بذلك: ربما الانقباض لسبب آخر وليس بسبب حادثي، وأنا أنظر إلى يدي المثبتة بالجبيرة وعليها بضع قطرات دم والكثير من الدموع التي بدأت تغسل خدي وتذيب نفسي.

- ماذا تقصدين بأنك ترغبين بتصديقي! بالتأكيد حبي لك ألَهَم قلبي هذا الإحساس وهذا الانقباض.

- على أيّ حال، حاولت مرارًا إقناعك بضرورة العودة من إفريقيا، وضرورة أن نحيا معا كأسرة واحدة مجتمعة، أن يكبر "جاد" ويتربى بوجود والديه معًا، أن يشعر ويلمس وجودك وتأثيرك، أن يتأثر بشخصيتك ويبني شخصية قوية واثقة منفتحة ومتحررة. لست قادرة وحدي على صنعها وتهذيبها .

ثم ألا تعتقد أن لي حقًا عليك بوصفي امرأة وزوج؟
أنا لا أستطيع الاستمرار هكذا، زوج مع وقف التنفيذ، زوج "أونلاين"، كما الآن نتحادث "واتساب" ونكرر أحاديث حفظناها عن ظهر قلب ونتواعد ونلتقي كل عدة أشهر في أيام نسلخك فيها عن عملك.
لا أستطيع الاستمرار، ربة منزل تقوم بمهام روتينية مكررة من تنظيف المنزل وتحضير الطعام، وتسهر على تربية طفل وزرعه بالعديد من العقد النفسية.

- ثقتي بك كبيرة. أنت أهل لتربيته وتثقيفه.

- نعم وأذكر رأيك العظيم أيضًا، أن شهادات المرأة مفيدة فقط لزيادة فرصها لتكون زوجًا، وأذكر أنك وقفت ضد الكثير من فرص العمل القادرة على إغناء تجربتي وتطوير نفسي وقدراتي في مجال اختصاصي بعلم الاجتماع. وهذا العمل قد يملأ الفراغ في حياتي بغيابك.

ثم ماذا عن كوني زوج مع وقف التنفيذ؟

"مراد" أنا لا أشعر بأنوثتي، ولا أستطيع إظهار هذه الانوثة وتمجيدها وتثمينها وتكريمها، أو كبح جماحها أو إطلاق العنان لها.

كما لا أستطيع تحمل المُضايقة، التحرش، وتلك الأفعال غير المرحب بها من النوع النفسي، الجنسي، اللفظي أو الجسدي الذي أتعرض له دائمًا كوني امرأة جذابة، تعيش وحيدة من دون زوجها المسافر، وهي بالتالي بمفهوم الكثيرين امرأة ممكنة الاصطياد.

امراة عرضة لانتهاكات ربما تكون بسيطة، ومضايقات جادة من مثل التلفظ بتلميحات مسيئة من منطلقات عدة، علها تُثمر صيدًا.

أعلم أنك ستقول هذا تصرف الهمج الرعاع، وأني فوق كل ذلك.

أنتم الرجال ربما لا تدركون حجم الإيذاء الذي يتسبب به هذه الفئة من الجهلة.

مراد أشعر أنني زوج مع وقف التنفيذ، وغياب المستمع المُحب، وفراغ زمني ممل مضجر. بالإضافة للفراغ العاطفي الكبير، وكذلك الجنسي.

لا أستطيع تجاوز كل ذلك.

كثيرا ما تكررت سابقًا نقاشات كهذه وحوارات بيننا أو بيني وبين نفسي دون أن تفضي لاتفاق أو فائدة. لا أنا أستطيع السفر والعيش في إفريقيا، ولا هو قادر على اتخاذ قرار العودة نهائيا للوطن.

يُمَني نفسه بأن كل ذلك مؤقت، وسيعود حتمًا لنعيش معًا يومًا ما.

قررت أن أنجب طفلًا آخر أو ربما أكثر، أملأ به الفراغ، وقد أعود به خطوة للوراء هروبًا إلى الذات، بقمع إرادتي وطموحي.
ففي ظل روتين الحياة وعدم فهمها، والبحث عن المجهول الذي ينقصنا، نقنع أنفسنا أن الإنجاز العظيم الذي يشغلنا وندأب على تحقيقه وصقله، أننا ننجب أطفالًا ونُحسن تربيتهم، هذا إن كنا فعلًا نحسن تربيتهم من دون أن نزرع فيهم الكثير من العقد التي نعاني منها نحن، ويعاني بالتالي منها المجتمع بمجالات شتى.
نقنع أنفسنا بأنهم أهم انجازاتنا، ربما لعدم وجود إنجازات حقيقية ترضي غرورنا أو تغني بيئتنا وصولاً لاثراء المجتمع عمومًا، أو ربما للخروج من عبثية وجودنا التي نشعر بها أحيانًا.
وربما نهرب بهم إلى الماضي وإنجازات الماضي وتقليدية الماضي: بأن أهم إنجازات المرأة أن تنجب و تعتني بأطفالها.
بهذه الأفكار، وبفكرة الذوبان فيها، بمعنى أن كل النساء في مجتمعنا تحت رحمة هذه الثقافة، يسهل ويهون عليّ كل ما أنا فيه أو على الأقل هذا ما ظننته.
لا أعلم إن كان من حكمة في كوننا لم نرزق بطفل جديد. باءت محاولاتنا بالفشل، رغم استشاراتنا العديد من الأطباء المشهود لهم بالنجاحات المتكررة وخاصة بموضوع العقم وحتى طفل الأنبوب. لم نوفر اي متابعات طبية لذلك، وحتى الفحوصات والصور. وكذلك التركيز على فترة الإباضة، حيث تكون ذروة احتمال حدوث الحمل، في أسبوع الخصوبة: قبل الإباضة بيومين إلى ثلاثة وهي مدة حياة النطفة وبعد الإباضة بيوم إلى يومين وهو عمر البويضة.
حتى هذا لم ينجح، ولم نرزق بأطفال جدد.

ودائمًا ما كانت خالتي حاضرة لمساعدتي بخرافاتها، تعاويذ وقراءات، أو طعام تنصح به، أو تمائم وأحجار كريمة تقف عائقًا في طريق أي أذى يتربصني.

كنت قد أعدت علاقتي بها على مبدأ الاستفادة من خدماتها في رعاية "جاد" في أثناء عملي أو حتى غيابي عن المنزل لأي سبب كان.
هي من النوع اللطيف البسيط التي يسهل إقناعها بأي شيء طالما لا يمس ثوابتها ومسلماتها التقليدية.

كان أحد الخيارات المتبقية على الأقل بالنسبة لي هو الانفصال.
عندما تصبح العلاقة العاطفية سيئة وتؤدي إلى اضطرابات نفسية كالقلق والاكتئاب والأرق، فإن الإنفصال يكون خيارًا منطقيًا، لا سيما إذا استُنفدت كل الخيارات الأخرى وعلى رأسها إصلاح ذات البين.
بهدف حماية أنفسنا، وعدم المضي قدمًا فيما هدم في أرواحنا، قد يكون الانفصال خيارًا لإستعادة الإستقرار النفسي وبالتالي الإجتماعي.

الطلاق، إنهاء العلاقة الزوجية، إلغاء أو إعادة تنظيم الواجبات والمسؤوليات القانونية للزواج، هذا بالشكل العام للطلاق. وواقعًا هو حدث غير عادي في حياة أي إنسان، رغم ما قد يزعم أحد الطرفين أو كلاهما، أنه بالطلاق ينشد الراحة والسلام والابتعاد عن المشاكل والمنغصات.

تزداد الأمور سوءًا بالتأكيد بزواج أحد الطرفين أو كلاهما، ودخول طرف جديد يحتل حيزًا من مساحة الحب والحرية والاهتمام وحتى السعادة، على حساب الأطفال بدل أن يتنامى كل ذلك في العلاقة السوية بين الوالدين حيث أن أي فرح أو سعادة لأي من الأطراف الثلاثة: الأم، الأب، الأطفال، ينعكس فرحًا وسعادة على هذه الأطراف الثلاثة، وهذا ما لا يحدث دائمًا في حال الزوج الجديد.
الطلاق طريق وعرة وثمن غالٍ يدفعه الأطفال خاصةً.

تراودني كل الأفكار هذه وضدها ونقيضها أيضًا: أعلم أن الطلاق مؤلمً ومحبطً وتتبعه أيام سيئة. ولكن هو محطة مفصلية من دون أدنى شك. أستطيع تجاوزها والتكيف مع المتغيرات يقينًا، والتأسيس لمرحلة جديدة.
لا أنظر للطلاق على أنه فشل بقدر ما هو عدم استمرار حياة "مزعجة مؤذية"، وفي كثير من الأحيان يكون هذا التخلّص نجاحًا بحد ذاته.
سأتقبل خسارتي إن كانت حقًا هي خسارة، أمنح مساحة لنفسي و مشاعري، السلبية منها والايجابية و سأنطلق من جديد.

حتى هذا الخيار خيار الطلاق لم ينجح.
"مراد" مارست تسلطك وذكوريتك، ودهاءك لعدم نجاح ذلك.

بعد خروجي من المستشفى، وكل تلك الخواطر والأحداث، والوحدة التي فرضتها على نفسي. بالإضافة للمصاب الجلل في تلك الليلة، أضف إليه ارتجاج الدماغ. كان واضحًا عندي الحزن والبكاء، فقدان الإهتمام واحتقار الذات. التهيج والثوران، الآلام الجسدية المبهمة والتعب، اضطرابات النوم والشهية، وصولًا للتفكير بالموت والانتحار.

إنه الاكتئاب، ليس مجرد يوم حزين يمر به الفرد أو مجرد لحظات من الكآبة يمكن تخطيها، بل نمط حياة يؤثر على الشخص بكُلّيته.
تشاؤم ونظرة دونية للذات. أعيش بمعزل عن العالم، حبيسة غرفتي وهاتفي من دون أن يروقا لي، ولا نمط العيش هذا الذي أنا فيه أيضًا، أبتعد عن كل من حولي كي لا أجهد في مداراتهم. فلا طاقة لي بذلك.
بذلت من نفسي الكثير لأفوز بسعادة حلمت بها فعدت أتأبط فشلًا وخيبة.
هل كتب عليّ أن أكون الخاسرة على الدوام؟
أفشلت في تحقيق أحلامي؟ هل يجب عليّ تغيير أساليبي ومبادئي؟

وفي لحظة من لحظات الوعي، تذكرت بطاقة الطبيب، المعالج النفسي، أسرعت بالاتصال به.

- انا "مونيكا"، كنت في المستشفى منذ أيام تعرضت لحادث وارتجاج دماغ.

- نعم نعم أتذكرك.

- أشعر أني لست على ما يرام.

- يقول الطبيب: الموضوع غير معقد، أيًا تكن الالحال الحل موجود.

لدينا العديد من خيارات العلاج سواءً بالأدوية أو العلاج النفسي.
حتى مجرد مناقشة المشاعر والأفكار قد يكون مفيدًا لك.

- أستطيع أن أحجز موعدًا غدًا؟

- بكل سرور .

6

دخلت عيادة الدكتور، عيادة واسعة مستطيلة يقسمها حائط مستعار إلى قسمين، مكتب أبيض يعلوه حاسوب بالإضافة لبعض الأوراق والكتب. و"لمبادير" بشكل اشارة صح مقلوبة ✓.

يجلس الطبيب على كرسيه البسيط الدوار. كرسي آخر قبالته بمحاذاة المكتب. وآخر أشبه ب"صوفا" تتوضع على مسافة أبعد. أثاث يغلب عليه اللون الأبيض.

أفكر بهذا اللون، طالما طال اهتمامي الألوان ورمزية كل لون.

الأبيض يترافق عادةً مع السلام والخير والأمانة والنقاء، ولبرهة شعرت أني أفتقد كل ذلك.

ويدل أحيانًا على البداية والتجدّد اللذان أبحث عنهما، ولا يغيب عن معانيه أيضًا الحياد، الكمال والإتقان الذي آمل أن أجده في الطبيب.

كما يوحي اللون الأبيض لناظره بالنظافة والتعقيم وهذا ما بدا جليًا في المكان.

كما البراءة والنقاء، أرفع أحد جانبي فمي عندما خطر ببالي ذلك.

الحائط على يسار المكتب يزينه رفوف عدة ارتصفت بأناقة يغنيها مجموعات من الكتب بمجالات مختلفة.

وعلى الحائط المواجه لذاك، لوحة: ما يشبه قُبلة، بين امرأة حالمة رومنسية وشاب ضاعت ملامح رسم رأسه الذي يتمادى مع السماء. يتوجه لفتاته بحب وفرح، رغم ما يغطي عينيه من حجاب.

هي الحب والحياة و لعبة الحظ، المتمثلة ب"أوراق اللعب" ولعبة الزهر فيما بينهما أسفل الرسم، رسم ل فيفيان الصايغ.

إلى الخلف من مكتب الطبيب، حائط مستعار على شكل لوحة كبيرة لما يشبه طيف امراة ممشوقة تنظر للأعلى، ذراعها ممدودة وكأنها ترغب بالتقاط شيء ما.

يطغى اللون الأبيض على المكان، ما يعطي انطباعًا باتساع المكان وامتداده. ورمزية التجدد والإشراق، الفراغ الفسيح الذي يخلقه الأبيض في النفوس قد يدل على أمل جديد فيها، لتشرق مجددًا وتملأ هذا الفراغ الذي يعتريها.

أنظر للطبيب ملقية التحية، وأستمر بخواطري : غالبًا ما يبدو محبو اللون الأبيض أشخاصًا مثاليين بكلّ ما تشمله الكلمة من معاني السلام، والهدوء، والتصالح مع الذات والأخرين.

هذا بالإضافة إلى الترتيب والتنظيم، والبعد عن العشوائية، فنادرًا ما يتواجدون في أماكن تعمها الفوضى، عدا عن محاولاتهم الدائمة لتحقيق مستوى عالٍ من الكمال والاحترافية في كلّ ما يفعلونه.

كما لا يُمكن التغافل عن براءتهم ونقاء نفوسهم الخالية من الأنانية أو التصنع. هكذا رسمت في مخيلتي صورة الطبيب، وأضفى المكان سلامًا وراحةً نفسيةً انتابتني بمجرد الجلوس و تجوال ناظريّ وأفكاري في المكان .

بعد عبارات ترحيب كسرت حاجز الجليد المفترض.

- يقول الطبيب :

سنتحدث عنك، وعن حالاتك المزاجية ومشاعرك وأفكارك وسلوكياتك. ولاحقًا أساعدك على تعلم كيفية السيطرة على حياتك وتحمل المواقف الصعبة من خلال مهارات التكيف الصحي.

يفيد العلاج النفسي في عدد من ضغوط الحياة والنزاعات التي يمكن أن تؤثر على أي شخص.

يضيف :

في البداية عليَّ معرفة بعض التفاصيل العامة عن سبب قدومك وشكواك العامّة، وكذلك عن بعض الأعراض المهمّة وعن تاريخك المرضي العُضويّ والنفسي.

كما عن بعض المعلومات المتعلقة بشخصيتك وعلاقاتك مع الآخرين من حولك.

يمكنك تسجيل كل ذلك على هذه الاستمارة، بشكل مقتضب.

بعد الانتهاء من ذلك، انتقلنا إلى الجزء الخلفي من العيادة خلف الحائط المستعار، وهناك أيضًا يغلب اللون الأبيض على المكان.
تمددت على اريكة أشبه ب" شازلون" مريحة جدًا يجلس بقربها الطبيب، بيده أوراق يدون عليها أحيانًا.

- بدأتُ الكلام : أشعر بالقلق والتوتر قليلًا. وأسأل نفسي كيف يمكن أن تقدم لي الفائدة المرجوة؟

هل اتخذتُ القرار الصائب؟ وكيف لي أن أعرف ملامح ما ينتظرني في الجلسات النفسية هذه معك وتحت إشرافك. على أيّ حال، هيأت نفسي لتقبل كل التفاصيل.
عندي إيمان بقدرة العلاج النفسي على تغيير الحال للأفضل، وبقدرتك أيضًا، وأعتقد أن هذا يشكل عاملًا أساسيّا للبداية.
وأعتقد أن لا داعي لتأكيد موضوع الخصوصية والسرية في كل ما أسرّه إليك أو يحدث هنا.

- يعاجلني الطبيب قائلا: من دون شك وبكل سرور.

سأتركك تتحدثين عن أي شي يخطر ببالك، أي هواجس، أي أفكار.
يمكنك البدء من حيث تشائين.

- شكرًا...حسنًا، أرغب بالتحدث بداية عن أمي.

أمي مرادف الحبّ والعطاء والحنان والتّضحية، وفي الوقت نفسه مصداق للقهر والظلم الذي يطبق على الأنثى وبالتالي يسبب تخلفها.
الأنثى التي اختصرت بكائن وظيفته الإنجاب وأداء مهام منزلية وخدمة الرجل.

الرجل الذي هو والدي، كاسب الرزق، والطرف الذي يجابه العالم الخارجي وتحدياته وتهديداته. والذي يحرص على أن يُظهر مدى تحمله وجلده وعدم شكواه. وإنكار كل مظاهر الضعف والعجز وقلة التدبير ليثبت قولًا وفعلًا أنه السند الذي تحتاجه الأسرة.

بالمقابل تظهر أمي بمظهر الكائن القاصر التابع الذي يحتاج لوصي، العاجز عن السيطرة على مصيره.

استُغلت أمي للحد الاقصى، طاعة، خضوعًا للزواج، تحديدًا للرغبات والإرادة. وعُوملت على أنها أداة إنجاب وإنتاج، استنفذت طاقاتها بسرعة مذهلة، ظهر ذلك عليها مبكرًا.

حصر عملها في الإنجاب ورعاية المنزل والأولاد. ورغم ذلك، كثيرًا ما تم تحقير هذا العمل عن قصد أو غير قصد، بجملة أبي المشهورة:

" ليش شو عم تعملي كل النهار قاعدة بالبيت"

وبالنتيجة:

في مقابل قوة أبي وذكوريته، أوكل إلى أمي الرضوخ و الاستسلام للأقدار.

وفي مقابل دور عقلانية وسلطة أبي، أوكل إلى أمي دور العاطفية والانفعالية والانزواء إلى حدود المنزل.

- يعلق الطبيب: يحرص الرجل ، كما المجتمع، على إظهار الرجل ودفعه ليكون مصداق القوة والسلطة والكرامة في مقابل ضعف المرأة وقهرها.

- أُكمل أنا: أضف إلى كل ذلك، وبالعودة إلى الإنجاب، استُقبِلت أمي بالتذمر والضيق عندما ولدتني أنثى، ووسِمَت بصفةٍ: أنها قد تكون من النساء اللاتي لا تنجبن إلا البنات.

فلم تنعم براحة الفكر المرجوة بسبب انتظار الجميع للذكر.

"ع قولة المثل الصبي ع البكر، راحة فكر."

أسماني "مونيكا"، تيمنا ب"مونيكا"، بطلة مسلسل رأفت الهجان التي أدته الممثلة صباح السبع، إحدى جميلات الثمانينات.

- يعلق الطبيب: من الناحية الطبية الحيوان المنوي للرجل هو المسؤول عن تحديد نوع الجنين، وليس لبويضة الأنثى من تأثير على ذلك، فالحيوان المنوي للرجل يحتوي على الجنسين الذكر والأنثى، لأنه يحمل الكروموسومات (XY) أي ذكر وأنثى، أما بويضة المرأة فلا تحتوي سوى على جنس الأنثى دائمًا، لأنها تحمل الكروموسومات ((XXأي أنثى فقط.

- أعلم ذلك، وقد ثبت ذلك علميًا، ولكن كيف السبيل لإقناع جزء كبير من المجتمع الذي ينعم بالجهالة، بهذه الحقيقة.

لم تقف الأمور على ذلك، بل حُمِّلت أمي جُرم وذنب أن الإبن البكر، أنثى هذا أولًا، ولاحقًا أنها لم تنجب إلا ولدًا واحدًا فقط، أخي "حاتم" غفر لها قليلًا أنه ذكر.

كان أبي أنانيًا في كل شي، ولا أبيح سرًا، إن قلت كان كذلك أيضًا في أداء العلاقة الجنسية من جهة، ومن جهة أخرى نظرته لأمي أنها أداة لهذه المتعة. عرفت هذا مما كنت أسترق سمعه من أحاديث تتطاير إلى أذني أو أطير أنا إليها تحركني حشريتي وطوقي لكل محجوب أفهمه أو ربما أستنتجه مع مرور الوقت أو عندما كبرت قليلًا.

- يعقب الطبيب :هو حال المرأة في المجتمعات الكادحة، وخاصة ضمن بيئتنا المليئة بالكثير من الموروثات الثقافية والاجتماعية وحتى الدينية.

كل القوانين الاجتماعية والعرفية وحتى الرسمية كانت عونًا للرجل على المرأة وسببًا في قهرها وتخلفها.

كما في قهر وتخلف الرجل، بطريقة أو بأخرى، لما في ذلك من انعكاسات جوهرية عليه ليس أقلها أن هذه المراة هي من ربته وتربي أولاده بمساعدة هذا المجتمع.

إن ما تعيشه المرأة ظاهرًا صريحًا من قهر وغبن واستغلال هو نفسه ما يعانيه الرجل الكادح بشكل ضمني وإن كان بطريقة مختلفة.

مما يجعله يسقط ظلم المجتمع وقسوته وقهره على من هو أضعف منه والمرأة خير مثال لذلك. كل ذلك ينعكس على بنية المجتمع وتركيبته وثقافته، وبالتالي يلعب دورًا مهما في وَسم إنساننا بالقهر وبالتالي التخلف.

كان الطبيب يحدثني بشيء من ذلك ويكتب جزءًا آخر، ويعقب ببعض بنات أفكاره.

أكملِي

- ولد أخي بعد ولادتي بسنتين تقريبًا، تربى وكبر على أنه الولد المدلل، لا يُرفض له طلب، ولا يُطلب منه الكثير. الكل موجود لتلبية رغباته.

شبَّ على ذلك، صنع منه والدي إنسانًا معاقًا اجتماعيًا، إن صح التعبير.

شديد الأنانية ولديه حب مبالغ فيه للذات، لا يفكر إلا بمصلحته فقط، ولا يستطيع أن يشغل باله بأمور أخرى.

طفولي جدًا وتفكيره غير ناضج، يحتاج إلى أحد ما كي يعتني به، دأبت أمي على ذلك، وطُلِب مني بشكل أو بآخر السير على خطى أمي بهذا، على مبدأ أنه السيد الذي يجب أن يُخدم.

اتصف بضعف الشخصية وفقدان السيطرة على الأمور،

التردد الدائم وعدم القدرة على اتخاذ القرارات.

يخشى من الناس ومن حكمهم عليه، لذلك تجده لا يدخل في جدال مع الآخرين بدافع الخوف منهم.

لا يمنح لنفسه الحق في التعبير عن رأيه بحرية، لأنه يدرك جيدًا أمام نفسه أنه لا يؤدي واجباته على أحسن وجه، وهذا كافٍ ليجعله فاقد الثقة بنفسه.
كما ويعتبر أن رزقه مرتبط بأشخاص وبرب عمل، لا بالله الرزاق أولًا، وثانيًا بجهده الذهني والجسدي.
باختصار هو رجل عديم المسؤولية.

- هذا أحد مصاديق الإنسان المقهور وبالتالي المتخلف المتصف بعقدة النقص والعار واضطراب التجربة الوجودية التي تميل للسوداوية وتدفعه للاتكالية ورمي عجزه على الآخرين وهذا ما يجعله فاقدًا أي أمل في التغيير.

والقوة المتسلطة تعمل على تغذية كل ذلك.
وفي مناحٍ أخرى يجعله يخجل من نفسه وهوانه، وبشكل متناقض مع ذلك يسعى للتظاهر والتبجح بمال أو نفوذ، مما يجعله تحت رحمة الادّعاء.

يتدخل الطبيب ليوجه دفة الحديث: الآن حدثيني عن نفسك، وأي تأثير كان لكل ما سبق على شخصيتك وسلوكك.

- كنت من النساء التي تعي مشكلة المرأة وأسعى إلى التغيير، يساعدني في ذلك شخصيتي القوية، وتحصيلي العلمي الجامعي، دراستي لعلم الاجتماع بالإضافة لمتابعتي للعديد من الأبحاث في علم النفس، و عملي لاحقًا بين الكتب والإصدارات الثقافية في دار نشر وإن لم يكن هذا الأخير من صلب اختصاصي.

كنت من المهتمين بترك أثر واضح في الحياة، أسعى لأكسب الاحترام والتقدير في أي مجال أخوضه.
أمتلك الطموح والصبر والتطلع للمستقبل، أبذل قصارى جهدي للوصول إلى النجاح، وتحقيق أهدافي وأحلامي.
لا أنكر دور زوجي بمساعدتي لتحصيل جزء من ذلك، وساعدني على ذلك أيضًا الحب والاحتواء الذي أحاطني به وقتها.

كل ذلك فرض على أدوار جديدة.
خرجت من سجن أمي التقليدي. حصّلت قسطًا من العلم في الجامعة، وكذلك الثقافة التي كانت ضالتي سعيت إليها في كل زمان ومكان.
سعيت لحياة منتجة ولمشاركة زوجي الأعباء والمسؤوليات داخل الأسرة وخارجها، وإن لم نكن بحاجة للمال، فهو ذو دخل مادي جيد جدًا، ونعيش بمستوى جيد من الرفاهية المادية.

- يضيف الدكتور :

إن رقي الرجل رهن بارتقاء المرأة تلك حقيقة تفرض نفسها على الواقع ولا مجال للمكابرة فيها. المرأة المقيدة تشكل قيدًا صريحًا أو خفيًا لانطلاقة الرجل.

- نعم، في مرحلة معينة كان زوجي داعمًا لي. لأنه يعي ذلك، لا يمكن أن يرتقي بمفرده. وأن رقيه سيكون سطحيًا أو جزئيًا لا محالة إن كان بمعزل عني.

كان بطبعه يكره المرأة المتخلفة المقهورة ويشفق عليها، كثيرًا ما كان يذكر خالتي المأخوذة بالخرافة والسحر وتأويل الأحلام وقراءة الطالع كوسيلة للهروب من القهر .
رُقي المرأة ومعه الرجل، ينعكس بشكل واضح ومؤكد على فلذات أكبادنا. المرأة تغرس أسس ذلك من خلال تربية الطفل وإعداده للحياة.

- يقول الطبيب: وإلى أي مدى نجحتما في ذلك.

- عانينا من رواسب الماضي وبرزت مشكلة الاختلال في توزيع الأدوار.

رغبتي في الإنطلاق الموازية لرغبته، تصطدم بصعوبة التخلي عن امتيازاته بسرعه. رغم دعمه وحديثه عن المساواة.
عانى كلانا من تلك الصراعات النفسية والتناقضات الداخلية والقيود.

ومن جانبي كثيرًا ما اصطدمت بالخوف من الإقدام ومواجهة العالم الخارجي. ومن أن يساء فهمي خاصة بشخصيتي الجريئة القوية الواثقة.
كل ذلك دفعني مرارًا للتراجع إلى مواقعي السابقة، مترددة أمام عظم التحديات وكبر المهمة. خصوصًا أني غير أكيدة من الظفر، لأعود للمواجهة بعد استكانة تطول أو تقصر.
يصدر عني ردود أفعال متشنجة على شكل تمرد جزئي أو كلي. أثور على صورة المرأة في مجالات، امتدحها في مجالات أخرى، كنت أمُر في فترات من التذبذب دائمًا .

- في مقابل ذلك، ما كان دور زوجك وسلوكه؟

- هو متحرر فكريًا وثقافيًا ومن أنصار المساواة ولكن ينتظر أن أقوم أنا، الأنثى، بكل ذلك من دون أن يشارك بشكل فعال، بل على العكس أحيانًا كان يقيدني عن علم منه بذلك أو جهل أو ربما عفوية.

الغالب أن يكون حماسه ظاهريًا أما في الممارسة اليومية التلقائية فما زال أسير الموروث الاجتماعي المتخلف.

- يضيف الطبيب : في الحقيقة يخشى الرجل أن تفلت المرأة من سلطته وتنافسه وتتفوق عليه. لذلك يحتمي خلف حقوقه التاريخية لكي لا يجد نفسه في امتحان عسير لذكورته التي ارتبطت لسوء حظه بالتسلط أكثر مما ارتبطت بالقدرة على الوصول للمشاركة .

كذلك أكثر الرجال تحررًا ما زال فعليا يتصرف انطلاقًا من توزيع للأدوار يعطيه بعض المكاسب ويشد المرأة إلى الوراء ويتصرف خصوصًا من موقع تجنُب وضعية امتحان قدراته الفعلية ووضعها موضع التساؤل.

تتعرض المرأة للاستلاب بمعنى: نزعة داخلية لاستبدال الذات الحقيقية بغيرها. وهذا يجعل الفرد في هذا المجتمع يفقد ذاته الفردية والاجتماعية الحقيقية في محاولة لامتلاك ذات أخرى صممت له بطريقة تناسب رغبات واحتياجات المتسلط أو المضطهِد.

ويمكن القول إن الاستلاب الجنسي يزداد بازدياد الاستلاب الاقتصادي والذي يتجلى باستغلالها للعمل دون مقابل، أو بمقابل ضئيل. أو مقايضتها بالجنس مقابل حصولها على حقوقها أو اليسير منها. مع التأكيد على عدم قدرتها على الابتكار أو الإبداع.
وتثبيت ذلك كله من خلال معتقدات وأساطير.
تفقد المرأة ثقتها بنفسها مع التأكيد على من دونيتها المهنية وتعزيز التبعية للرجل، أضف إلى ذلك الجهد المنزلي الذي ارتبط بالمرأة، حتى إنها تُستغل للعمل مقابل راحة الأب أو الأخ أو الزوج، وهو مظهر شائع منذ عقود، وهذا كله يضعها في خانة انعدام القرار، والقلق من الطلاق أو هجر الزوج لتصبح راضخة لمزاجيات الزوج وممارساته كسيّد عليها.

بل إنها تعاني استلابًا أخطر وهو" الاستلاب العقائدي"، حيث تتبنى المرأة قيمًا وسلوكات ونظرة إلى الوجود تتماشى مع القهر الذي تعيشه، بل وتبرره كجزء من وضعيتها وتركيبتها النفسية، وتقبل الأطر التي وضعها فيها الرجل، وتعتبر واقع القهر جزءًا من طبيعتها وتقتنع أنها مجرد قاصر، تتقن الكلام، كائن عاطفي انفعالي، عالمها هو البيت والزوج و الأولاد، وهذا الاستلاب العقائدي يجعلها مقتنعة بالدور الذي رسمه لها المجتمع المتخلف، كجسد يلبس، ويعتني ويطيع الزوج والأب، فتمسح وتطهو وترضخ. ويصل هذا الواقع أقصاه عندما تعتز المرأة بمظاهر هذا الاستلاب وتحدد شخصيتها من خلاله، فتكون المرأة في هذه الحال هي المتواطئ الأساسي على استغلالها.

الواقع لم تصل المرأة لهذه الحال تلقائيًا، وإنما من خلال عملية منظمة تحيط بكيانها من كل جانب:
تبدؤها الأسرة منذ الطفولة، من خلال الوظائف و الأدوار والحصار الفكري الذي لا يسمح لها بأي منفذ، ويسيطر على طريقة تفكيرها، وأسلوب حياتها، ويمنحها الذهنية المناسبة لهذا الدور.
ويتابع المجتمع طوال المراحل العمرية تعزيز هذه الذهنية، وتكوين لاوعي المرأة الموجه لخدمة الدور المطلوب منها ، لذا لا بد من تغيير هذا اللاوعي أولا لبناء مجتمع حقيقي، وتغيير ظروف الظلم العام على الإنسان عموما والمرأة خصوصًا لأن المجتمع يتشكل على نمط الأنظمة السائدة فيه.

ولا يفهم من كل ذلك أن الرجل وحده هو المسؤول والراعي عن عمد أو حتى جهل لوضعية المرأة.
لا نريد تعرية الرجل وجلده بل وتجريده من كل ما يساهم به من تطور المرأة في كثير من المجالات، أو على الأقل طيف من الرجال.
لا نريد أن نجرده بشكل واعٍ أو غير واعٍ من إنسانيته وإظهار المرأة كعنصر متلقٍ فقط، غير واعٍ لما يدور حوله، فاقد للقدرة على التعبير والمقاومة والتمرد البناء.
ولكن أليست هي التي تظهر على شاشات التلفاز فرحة بعريها لتعرض دعاية شفرات حلاقة للرجل؟

كما تختلف ملامح وضعية القهر التي تعاني منها المرأة مختلفة حسب الوسط التي تنتمي اليه.
ففي الوسط الكادح تعاني المرأة من استلاب مادي تتحول من خلاله إلى أداة للإنجاب والمصاهرة وتصبح مجرد وسيلة يفرغ من خلالها الرجل القمع والقهر الذي يعانيه من خلال إسقاطه عليها.

أما في الفئة ذات الامتياز فتعاني المرأة من استلاب معنويّ وإنسانيّ وتتحول إلى أداة للدعاية والإعلان عن الثروة والجاه والمكانة التي يتمتع بها الأب أو الزوج .
ولعلّ الطبقة المتوسطة هي الطبقة الوحيدة التي تعي مكانة المرأة ومشاكلها وتحاول منحها التحرر الذي تستحقه والمكانة التي تليق بها كإنسانة توازي الرجل في أهميتها مع أخذ رواسب الماضي والعقد الموروثة بعين الاعتبار فهي تشكل عوائق جديّة أمام هذا الانتقال الإيجابي.

يختم الطبيب حديثه قائلًا: نستكمل حديثنا في المرة القادمة. تلاحظين كان ذلك أشبه بحديث عام وبوح وتبادل أفكار. أتمنى أن تشعري بالراحة، وأن يكون الوقت قد مر بشكل محبب.

سررت كثيرًا باللقاء معك، شعرت بأنها جلسة أصدقاء ومثقفين. مرت أربعون دقيقة سلسة مريحة مثمرة.
متى موعد الجلسة القادمة؟ قلت ذلك بصوت ناعم طالما اشتهرت به سابقًا. قلت ذلك وعلى فمي نصف ابتسامة، رفعت كتفي ونظرت للأعلى أداعب شعري ناظرةً في عينيه.

7

صباحًا، وأجمل ما في اليوم الصباح، وقد يكون ما تبقى منه هو تكملة فقط.

هي أيام الشتاء التي طالما كرهتها سابقًا، كنت أشعر أنها تقيد حركتي وتضفي عليَّ قيودًا. الآن أجد فيها هدوءً وعونًا على تحقيق عزلتي التي أطلبها، بالإضافة لركوني إلى دفء البيت في مقابل برق ورعد السماء وأمطارها في الخارج، التي تحاكي ما يختلج في نفسي من أعاصير أفكار وأحاسيس.

يشاركني صباحاتي رفاق ألفتهم مؤخرًا؛ إحداهن من تبذل ذاتها في سبيلي، تفني نفسها لإطفاء غضبي. وآخر رغم مرارة ما أذوق منه، يُسري في بدني لذة أستسيغها. وأخرى تغني لي حينًا وحينًا آخر تخبرني بقصص القرى والعشاق والمغامرات، تطلعني على خلاصات ما آلت إليها من أفكار. ذلك كله، بينما أبوح بمكنونات نفسي، أحاول إعادة ترميم ما تلف مني، أعيد الثقة بيننا التي فُقدت منذ أمد. ونبني لآت أمتلك فيه زمام المبادرة.

على أنغام صوت فيروز صباحًا، مع سيجارتي التي اعتدتها مؤخرًا من دون أن يكون لي سابق عهد بها، أرتشف فنجان قهوةٍ أشعر بطيب طعمه وتأثير لذته فيّ.

وحيدة، إلا مع ذاتي التي أقمت معها علاقة حب كنت قد أهملتها.

لا شك في أن فيروز والقهوة والتبغ، كل ذلك ليست ذات تأثير بذاتها وكينونتها، وإنما بما نضفيه نحن عليها من معانٍ نابعة من حاجتنا لتلك المعاني والغايات.

بعد بعض جلسات مع الطبيب النفسي، استطعت إعادة تأطير علاقتي ب"مراد"، قد يكون عنوانها "لا قدرانة فل ولا قدرانة أبقى" وذلك على ذمة "نهاد" الاسم الحقيقي لفيروز، كما أحب تسميتها، طالما ابتعدتُ عما هو شائع ومستهلك.

نهاد وديع حداد: المشهورة باسم فيروز، واحدة من أهم فنّاني لبنان وربما العالم. من الجيل الذهبي للمسرح والموسيقى ومن أشهر الأصوات العربية، لقبت في لبنان بـ العمود السابع لبعلبك، استكمالًا لما تبقى من أعمدة ستة منتصبة في القلعة ذات النشأة الفينيقية التي احتلها الأغريق ولاحقًا خضعت للسيطرة الرومانية.

عملتُ على تخفيف القلق و التوتر الناجمين عن كل المواقف التي تمتحنني. يعينني على ذلك شخصيتي التي بدأت أعيد الثقة بها وبقوتها وجرأتها على المواجهة، كما بعض مستحضرات دوائية وصفها لي الطبيب والتي تساعدني أيضًا على نوم آخذ قسطًا وافرًا ومريحًا وعميقًا منه.
كثيرًا ما قضيت ليالي يجافيني فيها النوم، وتلح عليّ أسئلة كثيرة أبتغي جوابًا لها، وما فتئ يجافيني الكرى حتى لو وجدت بعض أجوبة لها .
أتزود بلُمظة من طعام غير ناظرة إناه، وصبابة من شراب كاف لسد رمق جسدي الذي أنهكه السهر وقلة الشهية والآلام المعممة التي اجتاحتني مؤخرًا.
بعد بعض جلسات مع الطبيب، ومع نفسي، استطعت التكيف مع تغيرات الحياة الكبرى التي ألمت بي، وإدارة ردود فعلي غير السليمة أحيانًا والمبالغ فيها ربما، مثل الغضب والحزن أو التصرف العدائي السلبي:
وقد يكون أوله اتجاه نفسي وذاتي ناهيك عمن يحيط بي.
رغبتي، شهوتي و غرائزي، أعدت ترتيب مفاهيمها.

كنت لا أخرج من البيت الا لمامًا، أطلب حاجات المنزل "ديلفري". لا أستقبل أحدًا من الضيوف والزوار أو الأقارب، رغم محاولات خالتي وأخي المتكررة لعيادتي في مرضي، الذي يظنون أنه جسديّ، ناتج عن الحادث.

أهمل أغلب اتصالات الهاتف ورسائله التي تسمى قصيرة. ربما ليقيني ألّا أحد منهم أستطيع أن أجيبه لأبكي على كتفه.
حظرت طارق بعدما أرهقني بعدد من رسائل الاعتذار، والمواساة والرغبة باللقاء وايضاح ما ادعى أنه قد خفي عني.

أما "جاد" فقد وجدته بعضي بل وجدته كلي حتى كأن شيئًا لو أصابه أصابني وكأن الأذى لو أتاه أتاني، فعناني من أمره ما يعنيني من أمر نفسي. تيمنًا بما قاله علي بن أبي طالب لابنه الحسن.

أيقنت أني لست قادرة على إنهاء محكوميتي في سجن "مراد"، هكذا صرت أراه، هو صاحب القول الفصل في الطلاق. كما أني لا أستطيع أن أبقى الزوج الأم المربية ربة المنزل.
اقتصرت رسائلي مع "مراد" على الحد الادنى والأحاديث الروتينية المملة لزوجين بعد عقد من عقد القران.
اعتمدت معه سلاح الضعف حينًا، والاحتيال حينًا آخر. وبضع مرات أخرى ألجأ للحرب الصريحة معه لاستنزافه، على الأقل معنويًا وذلك عندما أجده ضعيفًا.
أبالغ في مرضي وآلامي وهي غالبًا نفسية أو أدعيها، أتهمه بالتقصير ماديًا ومعنويًا وجنسيًا وفي كل ميدان يدّعي هو فيه التفوق.
طلبات كثيرة أطلبها، أدّعي حاجتي لها ليس أقلها الملابس والحلي، والهوس المبالغ به في التسوق.
أتقنت استعمال سلاح التنغيص، وهو من أسلحة المرأة الفتاكة، بدا تأثره بذلك جليًا وبفعالية أسلحتي، من خلال خشيته من ردات فعلي بشكل واضح.

في إحدى صباحاتي، وبعد طقوسها التي ألفتها، حدثتني نفسي بضرورة شراء بعض الملابس الجديدة، دون حاجتي الفعلية لها. ولكن أعجبني أن أكون أكثر أناقة في موعدي مع الطبيب النفسي.

أخذت حمامًا منعشًا منشطًا، لبست أفضل ما لدي، ثوبًا يظهر جسمي الممتلئ، ومكياج هادئ يكمل إشراقة وجهي ولون بشرتي السمراء، يسترسل شعري البني الداكن الكثيف الذي تميزه التموجات والانحناءات، الملتف بشكل بسيط على شكل حرف "S". أعدت ابتسامتي الدائمة على محياي التي كنت قد فقدتها، لطالما كنت صاحبة الوجه البشوش الذي يميزه تلك الغمازة على الخدين وخاصة الأيسر، وفتنة الشفة السفلية الغليظة الغاوية.

وقفت قبالة مرآتي وكأنها تحدثني، تعيد عليّ وذاكرتي، كثير من إطراء ومغازلات طرقت سمعي مرارًا ودغدغت غريزتي أحيانًا :

جميلة أنت، جمال الجسد الممتلئ المتناسق و الأرداف المكتنزة المتوازية مع المؤخرة، سحر يكتمل بالأناقة التي تعطي شكلًا أنثويًا أكثر عند منطقة الصدر. والابتسامة التي تتسم بالبساطة. اهتمامي بالتفاصيل دائمًا ما يصنع الفرق، يحق لهذا الجسد أن يتلذذ بمتعة الشباب والأنوثة... أن يزهر بلمسة الرجل.

أنقاد لمرآتي بصوتي يتهادى إلى أذني حتى سمعتُني أقول ذلك بصوت خفيف عذب، ينعكس تألقًا في عينيَّ.

لا بد أيضًا من قدر من الإغراء على الأقل ما يرضي غرور الأنثى.

ركبت سيارتي التي سأسعى لتبديلها، لا لشيء إلا لاستنزاف "مراد" ماديًا، ورغبتي في كل جديد عمومًا. وحاليًا من باب الإصرار على خلق الكثير من البدايات.

سأرغم "مراد" على ذلك بمكري النسائي .

كان الوقت لا يزال مبكرًا، مررت بمحطة الوقود لأملأ خزان الوقود في السيارة الذي كاد ينفذ.

في المحطة، لاحظت أحد المشرفين يحمل وعاءً، ينتقل به من "ماكينة بنزين" إلى أخرى، يقارن عدادها بالمقدار الذي امتلأ بالوعاء، يفعل بذلك للتأكد من الكيل، بحيث يجب أن يتطابق العداد مع سعة الوعاء التي تعتبر معيارية.

خطر في ذهني تساؤل، ماذا لو كان هذا الوعاء المعياري، أصلا خطأ. وبالتالي كل ما يليه سيصير خطأً من دون شك.
وقس على ذلك الكثير، مما يُحدد الصح والخطأ، في ثوابتنا، وأفكارنا، ومسلماتنا،
ماذا لو كان من يحدد الصح والخطأ ، أصلا هو خطأ!
ماذا لو كان ما نعتبره "صح" هو وجة نظر أحدهم!
ماذا لو كان "الصح" يختلف حسب الزمان والمكان! وربما الأشخاص!
لم تغب هذه الفكرة عن بالي طيلة الوقت في هذا اليوم !!!

ماذا لو كان من يحدد الصح والخطأ ، أصلا هو خطأ!

غادرت المحطة الى الجانب المقابل لها، توقفت في معرض للسيارات أشاهد ما عرض منها.
لفتني رجل وسيم أنيق، ممتلئ الجسم عريض الكتفين، يكاد يختال بمشيته ليظهر عضلات برزت في صدره وذراعيه، ذو لحية وشارب كثيفين. يمشي بخطى طويلة آسرة يحرك كتفيه بالتناوب وكأنه بهما امتلك جناحي نسر شجاع رافع رأسه مقدام سيمته العلو والسمو. أناقة ملابسه اللافتة تضفي عليه وسامةً وفتنة. أضاف إلي مظهره المتكامل اختياره الصحيح لساعة يده بتناسق قوي مع ملابسه وما يَظهر من شخصيته، كل ذلك أعطاه الإطلالة التي يريدها أو يتعمد إظهارها.
الساعات هي أحد الإكسسوارات الرائجة في عالم الموضة والأناقة، حيث تشكل الحجر الزاوي في إطلالة أنيقة وفاخرة خاصة للرجال الذين لا يمتلكون الكثير من الخيارات في مجال الاكسسوارات. إنها تمتلك تأثيرًا كبيرًا على المظهر الخارجي و أحيانًا تكون هي القطعة المفقودة التي تكتمل بها جاذبية و أناقة الرجل وحتى نجاحه.
كان قد ترجل من سيارة رباعية الدفع، لاند كروزر سوداء، نوافذها داكنة تمنع رؤية من بداخلها، يحمل سيجارًا بيده، ويتبعه آخران أشبه بالحراس

الشخصيين. دققت بأحدهما، أعتقد أني رأيته سابقًا، ربما في المستشفى، يهمس لمن يبدو "المعلم". ثم يتوجه نحوي ويقول:

- مرحبا المعلم، يريد أن يطمئن عنك.

- لم أجبه، عادت إلى ذاكرتي ملامح السيارة عندما تعرضت للحادث، وكلمة معلم، عرفت الشاب شاهدته مرارًا عندما كنت في المستشفى.

كان قد توجه هو أيضًا اتجاهي، فكان لا بد مني أن أسير نحوه أيضًا. لم يكن خافيًا عليّ نظراته إليّ وكأنه يتفحصني من أعلى رأسي حتى قدمي، أو بالأحرى من خصري حتى قدمي.

طالما وثقت بجاذبيتي وجمالي، وطالما سمعت إطراءً عن قدٍّي الأهيف الممتلئ، وتناغم ساقي الممشوقة مع فخذي الكمثري وأردافي المتناسقة.

أشاح نظره عني متوجهًا إلى ساعته يمسح زجاجتها بإبهامه، بملامح رجل وقور جاد.

ساعة مصنوعة من المعدن بالكامل، تحتوي على العديد من العقارب والأرقام والتفاصيل الكثيرة. لطالما جذبتني الساعة في يد الرجل، هي إكسسوار لا يمكن الإستغناء عنها بالنسبة للرجل الأنيق الذي لا يغفل عن الجاذبية التي يحصل عليها من ارتدائها وهي تحولت من أداة تقيس الزمن إلى جزء أساسي في مجال الأزياء و الموضة كما أنّها أضافت الكثير من المميزات التي زادت معها جاذبية الرجل واكتملت بها أناقته. هي أكثر بكثير من أداة تدل على الوقت. فالرجل الذي يميل إلى هذا الطراز من الساعات المعدنية الضخمة نسبيًا ذات التفاصيل، عادة ما يكون ذو شخصية قوية، ومحبًا للحركة الدائمة ويتمتع بالنشاط الكبير وحب المغامرة والرياضة.

- بادر هو بالحديث إليّ: الحمدلله على السلامة، لم يتح لي الوقت لعيادتك لكثرة أشغالي ولكن أظن أن "محمود"، وأشار إلى مرافقه، قام بكل ما هو ضروري.

أهلا بك، تنوين شراء سيارة من متجري هنا؟

- شكرا لاهتمامك، كان حادثًا عنوانه القضاء والقدر. ولم تقصِّر في شيء. وأنا قد تجاوزت ذلك. شكرًا لك.

أما الآن فقد كنت متجهة للتسوق، توقفت هنا فقط للاطلاع على السيارات، ربما أستبدل سيارتي قريبًا.

- متجر الألبسة خاصتي قريب من هنا أيضًا. يمكننا مساعدتك.

على أيّ حال، هذه بطاقتي ورقم هاتفي، أنا "نوح" يمكنك الاتصال في أي وقت.

- بدا واضحًا أني سعيدة برقم هاتفه، وبلقائه.

قلت: كان علي أن أحتفظ برقم هاتفك منذ أن اتصلت بي للاطمئنان عني بعد الحادث. لكني لم أفعل.

أقول ذلك وأذكر أني حفظت الرقم عبر لقطة شاشة "screen shot" منذ ذلك الحين علمًا أني حفظته من دون اسم حينها.

هي مقبرة ل "screenshot"، كثيرًا ما نحفظ عبارات أو صور أو الكثير من الصور أو العبارات، من دون الرجوع إليها يومًا.

- يضيف: اتصلي بي عند الضرورة، وقريبًا ستصلنا سيارات جديدة يمكنك الاطلاع عليها واختيار إحداها.

قال ذلك وهو يستنشق بعمق ويضيف : جميلٌ عطرك، وغمازة خدك أيضًا..

- أشكرك على لطفك. "La Vie est Belle" من "Lancome" و تعمدت إظهار نعومة صوتي بينما أحدق في عينيه، قائلة: أظن أن رقمي بحوزتك.

بدا على وجهه ابتسامة، و خطوط متجعدة حول العينين بجوار الطرف الخارجي لهما، وأعلم أن عضلات العين الجانبية لا تشارك إلا بتعابير سعادة حقيقية غير مزيفة.

- لا أظن أنه "La Vie est Belle" تمامًا، أستطيع أن أميز هذا العطر.

La vie est belle: هو عطر نسائي،
الترجمة الحرفية للكلمات: الحياة جميلة

وكأنه تعمد إهمال رقمي في أثناء حديثه ، للحظة شعرت أنه يتجاهلني، لم ألحظ بعينيه ذاك البريق الذي يوحي بسعادة معرفتي والشوق الحالم بلقاءات متتالية، لم آخذ منه انطباعًا اعتدته سابقًا من كل رجل قابلته، لم أطمئن أنه بعد رحيلي، سيبقى طيفي يلاحقه إلى الحد الذي يجبره على محادثتي.
ربما لأنه مختلف عن البقية، هو من الرجال مفرطي الثقة بأنفسهم، لا ينقصه شيء. يظهر جدية عالية في حضوره، ونبرة بصوته توحي بالقوة والتسلط.
لم يهن ذلك عليّ وكأنه إنقاص من أنوثتي وسحري وجمالي. وهذه كل أسلحتي لبناء ثقة بالذات كدت أفقدها.

نظرت اليه بجفنين شبه مغمضين نظرة خاطفة توحي بلا مبالاة به، بنعومة أزحت شعري إلى الوراء لأكشف عن وجهي وتركت أناملي تتشابك مع خصله .
بصوت عذب قلت له: سررت بلقائك برغم ما قد عانيت من لقائي الأول بك ، مع ابتسامة خفيفة ويد ممدودة لمصافحته.

بعد أن صافحني، وعلى وجهه ابتسامة، هز رأسه للأسفل لمرة واحدة.
أفلتُ يدي من يده بهدوء، متعمدة ترك طابع لديه أنها كانت أشبه بلمسة ناعمة لا مصافحة، وبحركة سريعة مررت يدي محاذاة أنفي أشمها متظاهرة برفع خصلة من شعري، المتطاير بالهواء. مجددًا، استدرت مغادرة وبعد خطوة أو خطوتين التفت إليه وقلت:
"Angel" ، وبلا أي تعليق آخر، غادرت ، سمعته يقول أنا أو العطر.

Angel: اسم عطر للرجال، الترجمة الحرفية للكلمة،ملاك

حاولت إرسال رسائل مختلطة اليه، أن لا أكون فيها واضحة أكثر من اللازم بل ربما صعبة على التصور والفهم. وأظنه أخذ منحاي هو أيضًا.
تركت معرض السيارات، ولم يتركني "نوح"، استوطنت شخصيته مخيلتي، شاهدته في كثير من الرجال وأنا أتجه إلى مركز المدينة للتسوق.

تلجأ بعض النساء إلى التسوق كوسيلة للظهور، وهو يشكل علاجًا نفسيًا بالنسبة إليها. فهو يساعدها على تحسين المزاج وعلى التخلص من التوتر والضغط النفسي. على اعتبار أنّ كل تجديد في حياة المرأة يمنح شيئًا من السعادة ويقتل الروتين الذي يتسبب بكثير من المشاكل ويعمل على نسيانها ولو موقتًا.
توجهت للتسوق و للمشي أيضًا، لتمضية الوقت، لإفراغ الكثير من الطاقة السلبية التي تملكتني..
ركنت سيارتي على الكورنيش بالقرب من صخرة الروشة، أو بالأحرى صخرتي الروشة، وهي واحدة من أبرز وأهم عجائب الطبيعة في لبنان والعالم ربما، ومقصدًا للزوار والسياح.

مشيت بخطى هادئة بطيئة باتجاه الحمام العسكري*، انعطفت يمينًا متوجهة لشارع الحمرا، أحد الشوارع الرئيسية في بيروت الذي يمتد من الشرق إلى الغرب ليصل بين وسط بيروت ومنطقة رأس بيروت.
كان شارع الحمرا فيما مضى مركز النشاط الفكري في بيروت قبل الحرب اللبنانية ولا يزال يتواجد فيه إلى اليوم الكثير من المعالم القديمة إضافة إلى العديد من المحال التجارية والمقاهي بطرازها الحديث والعصري.

الحمام العسكري: نادي وواحة استجمام للضباط وبعض المشتركين المدنيين.

للتجوّل في هذا الشارع، الذي طالما كنت أرتاده، متعة استثنائية، ولكني اليوم أجده مختلفًا رغم بقاء معالمه كما هي: الأشجار تُزيّن جانبيه، و أولئك الباعة المتجولون يبيعون بعض المنتجات، والكثير من المحال التجارية والمقاهي.
خلال تجوّلي يَجذب ناظريّ واجهات المتاجر وما تحتويه من الملابس وآخر صيحات الموضة والألوان. أتأمل المارة محاولة تكهن ما قد يشغل بالهم، تستهويني الشجارات التي تحدث في الأماكن العامة، وما أكثرها في وقتنا الراهن، قد يحدث شجار لأسباب تافهة جدًا وغالبًا ما تكون الأسباب غير وجيهة، ولكن هي من باب تفريغ الكثير من الكبت والعجز الذي يشعر به إنسان هذا المجتمع، شجارات تفرغ جزءً من الشحنات السلبية المكبوتة .
شجار كبير حدث، بسبب تصادم مرآة سيارة بأخرى، تطور إلى صراخ وسباب، ثم تهديد بالأيدي والعصي، إلى إطلاق النار في الهواء. وبالنتيجة التخريب.
عجيب كيف تتجمع الحشود من كل حدب وصوب عند كل شجار، وفي غالب الأحيان للمشاهدة فقط وربما التقاط بعض مقاطع الفيديو ونشرها

على مواقع التواصل الاجتماعي لما يحدث أو ما يمكن أن يكون مادة للكلام والتندر وصولًا للتحليلات .
تمر الحادثة مرور الكرام، ويعود الشارع وكذلك من فيه، الى ما كان عليه، ومن دون أدنى شك تتكرر حوادث كهذه وتخريب وإن اختلفت تفاصيلها. ربما تُنسى تفاصيلها ولكن يقينًا لا تغيب آثارها فتظهر في مزاج الناس وأفعالهم.
مجتمع يبالغ فيه ناسه بردّة فعلهم تنفيسًا لما في أنفسهم من كبت وقهر وجهل، يصبّ فيه أحدهم عدوانية على من هم أضعف منه، محاولًا بذلك قلب موازين القوى علّه يتخلص من صورة القهر والجهل والتخلف والهوان التي يشعر بها. يمارس عدوانيته المتراكمة بسبب القهر والهدر على المحيط المادي من حوله، فيظهر بشكل تخريب على مختلف أشكاله، خصوصًا تخريب الممتلكات العامة أو تجاهل القوانين وتجاوزها أو تخريب ممتلكات المتسلط.
وذلك يمكّنه في مكان ما، على الأقل في عقله الباطن من استعادة شيء من التوازن الكياني والانتقام من القهر والتخلف ومسبباته.

كنت قد تركت المكان مسرعة، متجنبة أي إصابة أو حادث غير محسوب، على أن أعاود زيارة المحال التجارية هناك بالتأكيد عما قريب، وأخذ قسطًا وافرًا من التسوق الذي يرضي غرور ورغبات المرأة، واختيار الملابس والحقائب والأحذية الأنيقة.
في شارع الحمرا الكثير من المقاهي، الحديثة والقديمة، الكثيرون يقصدونها، تلفتني تلك السيدة ذات القميص الأبيض على تلك الطاولة المنفردة، تبدو حالمة هائمة في عالمها تجلس وحيدة ترتشف فنجان قهوة.
نجا الشارع من هذا الشجار اليوم كما نجا من أحداث الحرب والاضطرابات السياسية سابقًا، شارع حيوي استقطب ويستقطب فنانين ومثقفين وطلبة، ويجاهد حاليًا لينجو من التحولات الكبرى التي شهدتها البلاد خلال السنوات الأخيرة، إضافة إلى الانقسامات السياسية العميقة والعمودية.

شارع الحمرا هو أيضًا مكان يعكس الملامح الثقافية، لهذه المدينة على أرض الواقع، حوى الكثير من المسارح والمعارض.
تجولت ومشيت مطولًا في الشارع وفي أزقته، اخترت ملابس جميلة جديدة، أكملت طريقي سيرًا على الأقدام باتجاه حديقة الصنائع، أو الصنايع كما نسميها هنا، المتنفس الوحيد البيئي في هذه المدينة.
حديقة يرتادها الكثيرون حاليًا بعدما أُغلقت سنوات عدة، ونجت بأعجوبة من تحويلها إلى مرأب للسيارات.
أمضيت ساعات عدة سيرًا على الأقدام أعادت اليّ بعض النشاط والحيوية الجسدية والفكرية.

لم يكتمل نهاري كما كنت أتمنى،

مجددًا، طارق...

8

ما كدت أدخل عيادة الطبيب...
يبدو عليّ التوتر، التعب والحزن. البكاء أيضًا غيَّر تلك العيون الواسعة، شعري كأنه رُبط على عجل بشكل "ذيل حصان".
فقدت إيجابياتي وروح الفكاهة التي كنت قد بدأت أستعيدها.

- أتوجه للطبيب عند وصولي للعيادة: لدي الكثير لأقوله...

إنه طارق، سأتحدث بشكل واضح وصريح علمًا أني كنت كذلك منذ الجلسات الأولى.
ولكن هناك دائمًا منطقة في أنفسنا نحافظ عليها سرية.
ثمة مواقف أو أحاسيس أو حتى كلمات تستوطن ذواتنا بقسوة، تأسرنا، تنهش شيئًا من روحنا وذاتنا، تدخلنا بحلقة مفرغة ما بين ضرورة عدم البوح بها وألم وحرقة الروح وعذابها بهذا الكتمان.
أعدك لن أترك اي منطقة سرية معك، سأكون ذاك الكتاب المفتوح، وأكثر من ذلك سأجعلك تكتب في هذا الكتاب ما تشاء.

- بابتسامة كلها تَفَهم واحتواء يتوجه إليّ الطبيب: تفضلي كلي آذان صاغية، لن أقاطعك أبدًا.

مهم جدًا إفراغ كل ذلك المحتوى الذي يقلقك ويشكل عائقًا أمام تحسنك وشفائك، لأني على يقين أن لديك شيئًا إضافيًا، مختلفًا عن آثار ارتجاج الدماغ ومشاكلك الزوجية.

- أبدأ منذ ما قبل حادث السير الذي كنت أعزو إليه ظلمًا كل الأعراض التي أعاني منها، تغيرات المزاج والمشاعر وفقدان الاهتمام والاكتئاب الصريح.

بعد عودة زوجي من السفر في إجازته الأخيرة، وبعد فشل محاولاتي المتكررة بإقناعه بالعودة والاستقرار سويًا، وعدم إمكانية إقامتي معه في إفريقيا لصعوبة البيئة والظروف وطبيعة الحياة هناك، وفشل محاولاتي المتكررة لإنجاب أطفال جدد لأملأ بهم ومعهم وقت فراغي وربما لأملأ أيضًا كل مساحة في ذهني قد تكون حيزًا لأفكار سلبية، ولأزيح عن كاهلي وعقلي أي أفكار وهواجس واقتصر نسبيًا على هم المنزل وتربية الأطفال.

وفي ظل عدم التزامي بعمل يحقق رغباتي ويرضي طموحاتي، حيث أن عملي اقتصر على بعض دور النشر، أدقق بعض الكتب والإصدارات والروايات وأُخرجها، بمعنى أضع اللمسات الأخيرة قبل الطباعة، وذلك مع أكثر من دار نشر كنت قد تعاقدت معها تباعًا. عمل أؤديه دونما حاجة للالتزام بدوام. أراجع دار النشر بشكل دوري لمتابعة واستكمال ما وجب استكماله، وتقاضي أتعابي المحدودة، من دون أن أكون بحاجة لها فعليًا على الأقل من الناحية المادية.

صحيح أن ذلك ليس مجال اختصاصي وشهادتي الجامعية، ولكن لديّ بعض الخبرة في ذلك، أضف إلى ذلك إتقاني للغة العربية بسبب شغفي بها، وكثرة قراءاتي.

عملٌ، حسب رأي زوجي، لا يبعدني كثيرًا عن بيتي وابني. أستطيع متابعة أغلب ما يوكل اليَّ في المنزل وعلى جهاز الكمبيوتر.

أجد متعةً في ذلك، رغم أنه لا يرضي غروري ولا يحقق مبتغاي، ومن خلاله كنت أتعرف على كتّاب وروائيين ومعنيين بكل ما يتعلق بالتأليف والتحقيق والنشر، وإصدارات الكتب. ومن بين هؤلاء، طارق.

كما كنت أسافر سنويًا مرة واحدة على الأقل من خلال إحدى دور النشر التي أعمل معها، للمشاركة ببعض المعارض العربية والدولية للكتاب، أو للمشاركة في إحدى المؤتمرات التي تُعنى بذلك.

وبالمناسبة كان ذلك فرصة لنتواعد ونلتقي أنا و"مراد"، في إجازة زوجية يطغى عليها جو العمل.

كما كنت أوافيه أحيانًا في سفره إلى إحدى الدول العربية أو الأوروبية عندما يكون في رحلة عمل هو أيضًا.
كنا بذلك نزيد فرص اللقاء بيننا.

- جميل، لنكمل ما بدأته عن عودة زوجك في إجازته الأخيرة.

- نعم، أكمل:

بعد فشل محاولات الإصلاح، وعدم وصولنا لكلمة سواء بيننا.
وكذلك بعد رفضه فكرة الطلاق والانفصال مرارًا، يراوغ حينا ويؤجل البحث بذلك حينا آخر، ويقترح ويطلب فرصًا جديدة.
كنت قد استعنت بمكر النساء، ونويت أن أفتعل مشاجرة معه، أستفزه وأثير غضبه، أدفعه لأن يضربني، وتكون حجة لي وسببًا وجيهًا للانفصال، حتى لو اضطررت أن ألجأ للمحكمة لتحقيق ذلك. والضرب سبب يُعتد به، وأستطيع من خلاله كسب بعض النقاط للوصول إلى الطلاق وهو مبتغاي، مع علمي ويقيني أن ذلك ليس حلًا جذريًا، ولكنه أسهل المُرَّين.

- وما علاقة طارق بكل ذلك، وإبتداءً من هو طارق أصلًا.

- طارق، شاب أربعيني، زميل سابق في الجامعة وكذلك في العمل في دار النشر، يعمل كما أعمل، في المراحل التالية لتأليف الكتاب، وقبل مرحلة بدء الطباعة.

كنت قلما ألتقيه في الجامعة، لم يكن في كلية علم الاجتماع التي كنت أرتادها ولكن في إحدى الكليات بجوارها، في كلية الآداب فرع اللغة العربية، لم يكن يجمعنا أي شيء مشترك، ولا أعتقد أننا تحدثنا حينها.
المهم هو أننا من خلال دار النشر، كنا نتبادل بعض الملاحظات والأفكار فيما يتعلق بالعمل.

وفي إحدى المرات، وحين هممت بالمغادرة من دار النشر، حيث كنت أتابع وأكمل بعض الأعمال الموكلة اليّ، توجهت إلى سيارتي حيث ركنتها بمحاذاة الرصيف المقابل للدار، وإذ بي أجد العجلة فارغة من الهواء، ولا إمكانية نهائيا للسير بالسيارة، توقفت قبالتها عاجزة، أنظر إلى العجلة بعينيّ وفكري يجول في عوالم شتى ابتداء من إفريقيا حيث لا يخلو تفكيري من كيل اللوم والسباب ل"مراد"، واستعادة كل المواقف التي شعرت بها بوحدتي وحاجتي لرجل أعتمد عليه وأحتاجه روحيًا أولًا ثم أحتاج وجوده المادي بقربي. وإذا بطارق يقترب مني بكل ثقة واحترام يحمل منفاخًا آليًا صغيرًا، ويباشر بنفخ العجلة قائلًا: أمر بسيط يحدث أحيانًا، دقائق وينتهي الأمر.

كان الأمر بسيطًا فعلًا ولكني وقفت عاجزة أمامه، أهمس لنفسي: بعض المواقف يستطيع الرجل معالجتها ببساطة وسرعة نفتقدها نحن النساء.

شكرته وهو بالمقابل كان لطيفًا وأبدى رغبته في المساعدة عند الحاجة، وأن باستطاعتي الاتصال به في أي وقت.

ولم يغادر المكان قبل أن يبدي شيء من الإطراء:

يمنحكِ "الشعر الكيرلي" المتدلي على كتفيك، وذاك المشبك فيه على شكل الوردة إطلالة مميّزة وفريدة، تلفت الأنظار من حولكِ.

لامس كلامه واطراؤه روحي وانعكس ابتسامة وغنجًا على وجهي، شكرته وأظهرت امتنانًا لما قام به من مساعدة وكلام لطيف.

كنا قد تبادلنا أرقام الهاتف سابقًا في أحد اللقاءات في دار النشر؛ كنا نتبادل محادثات مقتضبة يسودها الجدية وجو العمل، إلى أن تطورت لمحادثات خارج إطار العمل.

هي وسائل الاتصال الحديثة، ووسائل التواصل الاجتماعي، رفيقنا الدائم، والمؤثر الحقيقي الخفي في الكثير من الأفكار والآراء والتصرفات، أضف إلى ذلك سبب يُعتَد به من أسباب اضطراباتنا النفسية اللاواعية، والعديد من المشكلات الإجتماعية.

وجدت نفسي لاحقًا أحدثه عن بعض مشاكل وخصوصيات منزلي وزوجي، لتحل محل مشاكل وخصوصيات دار النشر والكتب التي كانت محور أحاديثنا سابقًا.

بعد إحدى اتصالات العمل بيننا، عندما لاحظ أن في صوتي بحة، وربما حرقة بالروح أيضًا، بحة ناتجة عن التهاب البلعوم، أبدى تعاطفًا وودًا واهتمامًا وتفاعلًا مع مرضي البسيط الروتيني نسبيًا، واستمر بالاطمئنان عني بشكل يومي بعدها حتى شفيت. والمفارقة أني كنت قد تحدثت مرارًا مع "مراد" وبنفس البحة والمرض من دون أن يلحظ ذلك أو يسأل عن سبب هذه البحة وعن صحتي الجسدية هذه، وكذلك النفسية المترقية إلا بعد مرور أيام على بدئها.

شعرت أن أمد المرض والبحة قد طال وخاصة بعد أن قرأت في مجلة طبية أن أي بحة تتجاوز مدة الشهر هي سرطان حنجرة حتى يثبت العكس.

وبدأ تتالي الأفكار في مخيلتي، بأني ربما أكون مصابة فعلًا بذاك الداء الخبيث، وأني بحاجة لسلسة من العمليات الجراحية والعلاجات الشعاعية والكيميائية لاحقًا، وأني ربما أفقد صوتي حتى، وفي سياق كل ذلك، أنا وحيدة و"مراد" بعيد، وهو الذي واجه أفكاري عن السرطان بعبارة: كفاك جنونًا، كفاك وهمًا...

كثيراً ما نرهق أرواحنا بأفكار وتحليلات وتخيلات لأحداث، هي أكثر بكثير مما قد ترهقنا هذه الأحداث بذاتها، في حال حدوثها.

طارق مستمع جيد لي، ولا ينقصه الذكاء العاطفي كما الذهني، وهذا كان ضالتي في غياب "مراد"، وأذن "مراد"، وحتى عين "مراد". كان يرمم بي بعض الخدوش النفسية التي أُصاب بها، وكذلك قد ساعدني في إبعاد شبح إصابتي بالسرطان التي توهمتها. كان لطيفًا، لا يخلو كلامه من الإطراء والمديح وصولًا إلى الغزل أحيانًا. واحتوائي بالكثير من المبادرات طيلة مدة توتري هذه.

في البداية كنت أحرص أن يبقى جو الحديث بيننا جديًا منضبطًا، إلى أن صرت أستسيغ طريقته في الحديث وأسلوبه معي وردَّات فعله، وأكثر من

ذلك كان يحلو لي الكلام معه وأنتظره ليكلمني، إلى أن صرت أبادر أنا بذلك، بداية باصطناع ذريعة ما للبدء بحوار ولاحقًا بشكل مباشر وصريح في رغبتي بالمحادثة معه.
دعاني مرارًا لتناول فنجان قهوة أو ما شابه، في مكان عام أختاره، وكنت أرفض دائمًا. إلى أن قبلت دعوته في إحدى المرات في إحدى المقاهي التي يرتادها المثقفون عادة.

- الطبيب: اسمحي لي أن أقاطعك، أظن بالنظر إلى ظروفك وحالتك النفسية، وشخصيتك التي صرت أعرفها.

كان عليكِ بعدها أن تصّري على الإنفصال وانهاء العلاقة: مع زوجك، أو مع طارق. لأني أظنك بلقائك هذا معه، هو بالذات، قد اجتزت نصف الطريق .

- أي طريق؟

- أظن أنك تفهمينني، لا أشك بفطنتك.

- قلت: ربما.

- وماذا بعد؟

- أُكمل، هذا ما يتعلق ب طارق، وبالعودة إلى زوجي "مراد": بالفعل، وبعد عدة محاولات سابقة للوصول إلى كلمة سواء بيننا، وشجارات كان ينسحب منها، يتجنبني ويمتص غضبي.

وفي اليوم الأخير من إجازته، وقبيل سفره تشاجرنا، وبالفعل ضربني، وعندها أرعدت وأزبدت، وعلا صراخنا. كنت متألمة فعلًا، ألم روحي يفوق الألم الجسدي بأشواط.

هو توجه للمطار لأن موعد رحلته قد اقترب. وأنا تركت المنزل ولجأت لخالتي، أبثها حزني وألمي ويأسي، ليس لدي مكان آخر التجأ اليه.
أخي "حاتم" ليس أهلًا لذلك، لا يعلم وجوب احتوائي ولا يتقن ذلك أيضًا، أبي على شفير الموت عليلًا بمرضه العضال، لا يهون عليّ أبدًا ازعاجه ولا هو قادر على فعل شيء.
خالتي لم تستقبلني... كعادتها بدأت بتذكيري بدور المرأة التي يجب أن تكون: أَمَةُ زوجها، وأصرت على عودتي لبيتي، كانت أشبه بمن طردني طردًا من بيتها. ووعدتني أنها "ستسكب لي رصاصة" تبعد عني العين والحسد وسوء الطالع.

من الصعوبة بمكان، ألا يجد المرء ملجأ يأوي إليه،
ألا يجد من يحتضنه... من يسأله هل أنت بخير؟
من يسأله "كيفك،"؟ سؤال يمس الروح قبل أن يطرق الأذن، سؤال يستطيع المرء بعده البوح بمكنونات ذاته وهواجسه وآلامه التي تبحث عمن يبلسمها ولو بكلمة.
من الصعوبة بمكان ألا يجد المرء من يخبره أنك على حق، لا أن يتخذ صفة الواعظ والناصح والمعاتب.
أن يقبل منا أن نخطئ، وكلنا يخطئ.
لا بد للمرء من شخص يلجأ إليه، عندما لا يعلم إلى أين يذهب، تتقلص الأماكن التي تشعرنا بالأمان، وكذلك الأشخاص.
يحدث ذلك تدريجيا مع تراكم الخيبات.
لم يكن لي ملجأ، لا مكان يأوي حزني، ولا صدر حنون يحتويني.
لم أؤمن يومًا بما قال فيودور دوستويفسكي: "أن البوح ليس سهلًا للمقرّبين كما يصوره الآخرون، بل صعب جدًا، والبوح للغرباء متعة وراحة وأمان، لأن كل ما ستقوله سيذهب معهم حيث يذهبون، ولن يفهموا سوى ما تريد، سيقفون بجانبك، يدعمونك، يضحكون ويبكون معك، لأنهم لايعرفون أحدًا من الحكاية كلها إلا أنت .. فأنت بطلهم.

كنت أومن أن البوح للأقربين أفضل وأن ذات الدم الذي يجري في عروقنا يجمعنا ويمكنه أن يكون لنا حياة عندما نشعر بالموت. ولكن خذلتني خالتي، و سيخذلني طارق أيضًا...

اتصلت بطارق، وقد اعتاد على مواساتي ومدّي بالطاقة الايجابية مرارًا. التقينا وتقابلنا كلٌ يجلس بسيارته. ثبّت لدي أني لست بحال جيدة، وأنا فعلًا كذلك. ثم ترجلنا ومشينا خطوات معًا، احتضنني وأمسك يدي بكلتا يديه.

وما بين الخيبة والرغبة بالانفجار وربما الثأر من الجميع، ومن نفسي أولًا، ذهبنا معًا إلى شقته بعد أن أقنعني أن شكلي الحالي ومزاجي ليسا مناسبين للجلوس والحديث أمام الناس أو في مكان عام. الكل يرمقنا ويسترق السمع.

كنت بحاجة فقط لاحتواء... لعناق... للبكاء... لأذن تسمع لا تعظ...

ثمة أوقات، نحن بحاجة لمن يتقبلنا كما نحن، لمن يؤكد لنا حقنا في الغضب والسباب حتى، حقنا في الخطأ، حقنا في أن نشعر أننا على صواب، حقنا أن نجد إحتواء يليق بنا.

ما بدأه طارق بالاحتواء والعناق، أنهاه بممارسة الجنس، حصل ذلك ما بين غياب الوعي والإدراك عندي، ورغبتي في الانتقام: من نفسي، ومن "مراد"، ومن المجتمع عمومًا.

لم يتجاوز ذلك كله بضع دقائق.

وما كنت أعلم أن وجعًا وعذابًا نفسيًا استباحني، ما كنت أعلم أني قتلت نفسي بذلك.

ثمة أوجاع لا يناسبها بوح في آذان، وإن كانت صاغية.

ثمة أوجاع خُلقت للكتمان وإن هذا الأخير قد يلتهمنا من الداخل.

إستمر ما بين جسدي وبين جسد طارق دقائق وقتها، وما لا يقدر بزمن أو بخيبة بعدها.

تُستنزف من الداخل، عندما تعلم أنك جسر للعبور فقط، جسر عبور لقضاء شهوة، وسيلة لتحقيق مآرب.

كنتُ جسر عبور ل طارق، ليتجاوز رغباته وربما اضطراباته وعقده ورواسبه الفكرية والثقافية والاجتماعية ومفهوم المرأة في ذهنه.
تُستنزف من الداخل عندما لا يُسكَن إليك ولا تجد من تسكن إليه.

استعدت وعيي وإدراكي بعد ما حدث، أصابني الجنون. أنا التي حفظت نفسي و كرامتي وكرامة "مراد" سنوات سبع ونيف غابها عني، انتهى ذلك بدقائق.
ضربت طارق، كسرت طاولة اعترضتني، بقبضة يدي، تسبب ذلك بكسر وجرح إصبعي.
تركت الشقة مخدرة بألمي وهواجسي وانتهيت بحادث سير أولًا واكتئاب ثانيًا والأهم فقدان إحترامي لذاتي، فقدان الرغبة بالحياة وصولًا لليأس وحتى رغبة بالانتحار.
عارٌ على البشرية أن ينتحر أحدهم وقد كان في حاجة إلى عناقٍ طويل.
كما قال ألبير كامو.

لاحقًا انغمست في صراعات فكرية، صراعات نفسية وعقائدية وصراعات حول كل الثوابت والبديهيات التي آمنت فيها و اكتسبتها منذ نعومة اظفاري إلى اليوم.

ينظر اليَّ الطبيب موحيًا أنه يصغي باهتمام.

- أكملتُ ذلك بالأمس أيضًا، متوجهة للطبيب.

- كيف، ماذا تقصدين؟

- التقيت طارق صدفة، واجهته بوجه متجهم مشدود، عاقدة الحاجبين، التوتر واضح على محياي و جبهتي المتعرقة، أضغط

أضراسي على جانبي الفك، أعض شفاهي. وتتملكني رغبة وقدرة أن أطبق على عنقه وأنفاسه.

أعبث بمفاتيح السيارة باليد اليسرى، تملأني الرغبة بأن أضربه بها.

اغلق قبضة اليد اليمنى لحظة وأشبك أصابعي لحظة أخرى. أتململ ثم أتلعثم : طارق طارق من أتى به إليَّ مجددًا.

قلت له : ألا يكفيك ما فعلته بي!

حاولت الهروب منه، فتحت باب السيارة وركبت مسرعة، أشغلها مستعدة للمغادرة. فعاجلني بمحاولة الركوب في المقعد المجاور.

بدأت السيارة بالحركة تكاد ترمي به أرضًا، يصرخ قائلًا: فقط أعطني فرصة لأتكلم.

تستمر السيارة بالحركة، وبمناورة سريعة منه أساسها غريزة البقاء والخوف من الاذى والموت، نجح في أن يجلس قربي ونجح بإغلاق باب السيارة التي تسارعت حركتها.

أصابني التوتر والغضب بدايةً، وصعد معي في سيارتي عنوة.

حدثني فيما كنت أقابله بتجهم وإساءة ورفض، إلى أن استطاع احتوائي... وهذه ضالتي.

ثم ذهبنا إلى شقته مجددًا لنعيد الكرة وهذه المرة لا أنكر أني لم أكن مرغمة. بل أكثر من ذلك اتصل بي صدفة :"مباد"، حدثته وأنا بين ذراعي طارق أنام على صدره.

- "مباد"؟! تقصدين "مراد".

- لا "مباد" أسميته من الآن فصاعدًا كذلك، لأن بي رغبة في إبادته، كما أبادني.

ولكن للأسف، وأقول للأسف وأعنيها، عندما عدت للمنزل تجدد حزني واكتئابي وإحساسي بالخطأ ورغبتي في إنهاء حياتي والانتحار، لأن حياتي وروحي قد انتهت حتمًا.

يحدثني الطبيب بكلمات مواساة ودعم نفسي، وما تعطي من طاقة ايجابية.
بالإضافة لبعض الأقراص الدوائية.
وموعد لقاء جديد ، كما أحب أن أسميه، غادرت.

9

ما بين اكتئاب يخبو وصراع أفكارٍ في مجالات شتى ليس أقلها التشكيك بالكثير من الثوابت والمسلمات التي بُنيت على مر عقودٍ ثلاثةٍ انقضت من حياتي. واضطراب منهجية التفكير والسطحية والاعتباطية في تناول القضايا ومناقشتها.

ثورة صاخبة داخل نفسي يقودها رغبة عارمة بالانتقام من البشر والبشرية. ويقيني أن المثالية وقدرتي على الإنسجام في هذا المجتمع تكاد تكون معدومة. بل أكثر من ذلك أشعر بحقد وعدم تسامح اتجاه كل ما يحيط بي.

وما بين مد وجذر، وقيودٍ شتى تعيد تقييدي، ونوبات اكتئابٍ متجددة ترخي تأثيرها الجلي عليّ. لم يكن آخرها ما أثمته مع طارق مجددًا. استمرت أيامي هكذا.

أحدث نفسي دائمًا:

قررت أن أحب نفسي مجددًا، تضخمت النرجسية عندي.

قررت أن أحب جسدي مجددًا، وكنت قد عملت سابقًا على معاقبته. عدت أهتم به وأزينه بالملابس والحلي. أوليست المرأة هي دائمًا المتهمة، بأنها آلة استعراض بل وأحيانًا تُدفع وتُوظف لتكون كذلك.

تتدرب الأنثى منذ حداثة سنها على إجادة التعبير الجسدي الذي يَعد ويَمتنع، يجذب الرجل ويُفلت منه.

قررت أن أتقن التوظيف العاطفي والجنسي للمرأة.

"يعتقد الرجل أنه يسيطر على المرأة وتعتقد هي في دخيلة نفسها أنها هي التي تمتلك زمام المبادرة الفعلية عليه. وأن سيطرته الظاهرية ليست سوى وسيلة توهمه بقوته كي لا ينتبه إلى ما تفرضه عليه من سيطرة".
مع "مراد"، أو بالأحرى "مباد" سأؤدي دور المرأة الخاضعة الطيعة والمطيعة، أتجنب معه أي صدام أو نقاش حاد.
ألغي أي حديث حول الطلاق، لا حاجة لي به بعد الآن بل على العكس، كوني امراة متزوجة، على الأقل على الورق، يعطيني الحماية المادية والمعنوية وبعض المكانة الاجتماعية، ويبعد عني الكثير من الطفيليين.
خالتي و"حاتم" ومباد، ليسوا أكثر من كومبارس في حياتي.
طارق بعد اليوم، سيخضع لقانون "الحظر" حظر على كل المستويات، الافتراضية والواقعية، الحظر مفهوم القطيعة في العالم الافتراضي اليوم، وينسحب ذلك على العالم الواقعي أيضًا.
بي حاجة ملحة لأن يسمعني أحد أو أسمع كلامًا ناعمًا يشكل لي طاقة إيجابية.
كنت قد اتصلت به بعد قطيعة تلت لقاءنا الثاني، ما كدت أحدثه حتى وجه دفة الحديث كما يشاء وعرض علي التواجد في شقته مجددًا. الرجال جنس عاطل كما أحب أن أسميهم، لا يرى أبعد من أنفه ومن ثديي المرأة ومؤخرتها.
أخبرته صادقة أني صُنت نفسي سبع سنوات عجاف، لجأت اليه في تلك الليلة المشؤومة أبحث عن حضن أسكن إليه وأُحتوى.
عندما اتصلت به في المرة الأخيرة أساله احتواءً، لم يراني إلا جسدًا يسعى ليقضي منه وطرًا.
نَعَتَني بالعاهرة و المومس المعتادة على العمل المشين لمجرد أني رفضت الذهاب إلى شقته.
طارق، أيضًا أصبح كومبارس، أو لنقل: يقينا قد خرج نهائيًا من المشهد إلى غير رجعة.

عدت إلى تفعيل عملي في دور النشر، لدي الآن مشروع كتابين أعمل عليهما، الأول لكاتب اماراتي ناشيء، وآخر لعراقي يكتب ما يُسمى شعرًا حديثًا وهو ما لا أستسيغه ولا أتذوقه.
وحرصت على ممارسة رياضة المشي بشكل متكرر، أختار أماكن مختلفة في بيروت، مخصصة للمشي، وأحيانًا تتزامن رياضة المشي مع التسوق وخاصة أني أحب وأستمتع بكليهما.

توجهت إلى أحد المتاجر الكبيرة للملابس، N&M، الشبيهة بـ الماركة العالمية H&M، يتبادر إلى بالي "نوح" وخاصة أنه قد أخبرني أنه يملك متاجر لبيع الألبسة، لعل حرف N، يشير إلى أول حروف إسمه، أحدث نفسي ثم أضحك بصوت مسموع وربما عالٍ.
دخلت صالة بيع الألبسة، استقبلني شاب بابتسامة وانحناءة خفيفة بجسمه مع كلمات الترحيب المعتادة، لم يكن قد تجاوز العشرين من عمره، ملتحي وبشوارب كثيفة، طالما جذبتني إطلالة كهذه. يلبس بنطالًا أسود وينتعل حذاءً أسود ملمعًا بعناية، قميصه ذو لون أبيض ناصع، تزينه ربطة عنق بلون برتقالي. توجهت اليه قائلة:

- هل يمكنك مساعدتي في اختيار بعض الملابس.

- أجاب بكل سرور.

- عاجلته بابتسامة، ونصف إغماض لعيني، وأنا أميل برأسي قليلًا.

توجهت اليه وكأني أدعوه للنظر إليَّ والتمعن: أفضِّل نمط ملابس كهذه، كثيابي هذه التي أرتديها. ثم مشيت خطوات قليلة قبالته وقمت بحركة دورانية لأداعب بعد ذلك خصلات من شعري.
مشى بقربي نتنقل بين رفوف الملابس، اخترت كنزة بلون صفراء ب "كُم" ولكن مكشوفة الكتفين.

يمثل اللون الأصفر قمة التوهج ، لون مشرق مبهج، يعمل على زيادة مستويات النشاط العقلي والوعي وزيادة مستويات الطاقة والحماس. يرتبط سيكولوجيًا باحترام الذات والعواطف والإبداع.
يدعي المصممون والمبرمجون أنه تم اختيار اللون الأصفر في تصميم الوجوه الضاحكة أو الرموز التعبيرية "الإيموجي" في عالم الانترنت، لأنه يساعد في إطلاق مادة كيميائية في الدماغ تسمى السيروتونين (هرمون السعادة) والتي تعمل كمثبت للمزاج.

أين غرفة القياس أرشدني إليها، قلت له.

- تفضلي، في ذاك الركن.

دخلت إليها، بدلت ملابسي، لبست الكنزة، ناديت الشاب: أرجو أن تساعدني في قفل الزر الخلفي للكنزة. إقترب خجِلًا محمر الوجه، وفعل ذلك.
استدرت بحركة رشيقة نحوه، صار ملتصقًا بي لعدم وجود مساحة واسعة في غرفة القياس. جذبته من ربطة عنقه، قبَّلته في فمه بسرعة عضضت شفته قليلًا، قرصته في مؤخرته بكامل راحة يدي ثم وضعت كامل راحة يدي على صدره، ودفعته بعيدًا للخارج.
تصرف ذكوري انتابني...
لم أخلع الكنزة وجدتها مناسبة لثيابي، مع بنطال الجينز هذا، وحذاء ذي كعب بسنتيمترات خمسة، وحقيبة اليد التي أشعر أنها جزء لا يتجزأ من أناقة كل أنثى وخصوصيتها.
إخترت كل ذلك وحافظت على ما جربته من ثياب من دون أن أعيد تبديله، وغادرت.

كان بي رغبة في المشي، طالما أحببت المشي في الطبيعة وبين الأشجار و بمحاذاة الأنهار، رغم أن ذلك غير متاح في المدن، أو على الأقل إلا في نطاق ضيق جدًا في الحدائق وهذا ما تفتقده بيروت بشكل جلي واضح.

توجهت بسيارتي إلى أطراف المدينة، مبتعدة عن ضجيجها وصخبها وازدحامها. مشيت ثم مشيت ثم مشيت، ينتابني شعور إيجابي اليوم.
سمعت بعضًا من الإطراءات إن لم أقل من "التلطيشات" في أثناء تجوالي وخاصة أني أسير بمفردي وعلى غير عجل. العديد من السيارات تتباطأ بمحاذاتي وتتجاوزني، كل يرمي شباكه نحوي بطريقته الخاصة، ما بين تلميح وتصريح ، أو غزل لطيف أو وقح، أو تصرف فكاهي أو استعراض إغوائي.
تمر سيارة بمحاذاتي، يقودها شاب منفرد، ينظر إليّ مطولًا، يقول ما أسمعه وما لا أسمعه، وهي يقينًا محاولة للتحرش بي أو للفت انتباهي وإغوائي. تبتعد السيارة لتعود مجددًا وتمر بقربي، يتكرر ذلك مع سيارات عدة.
ذلك ليس بسبب ما أملك من جاذبية وجمال، ويقينًا لا ألبس ثيابًا فاضحة، ولكن هو الرجل، يبدو وكأنه في صيد دائم، يبحث عن إمرأة تريد أن تهرب، ليهرب معها.
مرت بضع سيارت... شباب طائش يرمي فتات كلمات مقززة غالبًا لا تترك أي أثرٍ يثير فضول أو مشاعر أنثى. توقفت قربي إحداها، ترجل منها شاب يبدو في أواخر العقد الثاني من العمر، بدأ بسؤال لا أذكر فحواه، كان يبدو واثقًا جريئًا من دون وقاحة، يمرر كلامًا غزليًا يبدو عفو الخاطر من دون تكلف، بين كلام لبق ومزاح رقيق وإطراء مرهف.
ختم قائلا: هلّا أرشدتني إلى متجر مستحضرات التجميل قيل لي أنه موجود في آخر الشارع هذا، أجبته بكل سرور من دون أن أعلم يقينًا وجود متجر كهذا قريب أو عدم وجوده.
تفضلي أشار اليَّ لركوب السيارة.
فعلت ذلك وقلت له:
من هذا الاتجاه، كنت أقصد اتجاه سيارتي التي كنت قد ابتعدت عنها فعلًا بعد أن مشيت مسافةً ليست بالقليلة.

ما كدت أصعد إلى جانبه، حتى عاجلني يمسك يدي، فعاجلته بصفعة على خده لا تخلو من غنج واضح، تعمدت أن أصفعه على خده لما لذلك من معانٍ في نفسي.
تجرأ أكثر فتمنعت، ثم صرت أكثر ليونة وانسجامًا معه، وعندما وصلنا إلى حيث ركنت سيارتي نهرته:
توقف، وصلنا إلى متجر مستحضرات التجميل، توقف هو بسرعة. أصرّ على معرفة رقم هاتفي وأبدى رغبة في معاودة اللقاء. أعطيته رقما عشوائيًا سجله على الهاتف وبادر بالاتصال مباشرة ليأتيه صوت المجيب الآلي:
إن هذا الرقم غير موضوع في الخدمة بعد.
نظر اليّ قائلا: تكذبين؟
صفعته مجددًا ونزلت متجهة إلى السيارة ثم إلى البيت.

يكون الطبيب قد استحضر كل هذه التفاصيل ، وكتب ما يلي:
لجأت مونيكا الى الوحدة والعزلة الاجتماعية أولًا:
الانكفاء على الذات والانسحاب من الواقع، كوسيلة دفاعية لما تعرضت له من خذلان زوجي ولاحقًا من طارق، علّ ذلك يساهم في التأقلم مع وضعها الراهن ويخفف من وطأة ما تعاني منه. قد بدأت بذلك. حتى أنها أحيانًا، لجأت إلى الخرافة من خلال خالتها، في محاولة بائسة منها للسيطرة على حياتها، وذلك من خلال تعاويذ وأعمال تحفظها من العين والحسد والجن.
ثم انتقلت إلى حيلة التماهي مع المتسلط، هنا وعلى عكس الحال الأولى تمامًا أنكرت وضعها الصعب وبدأت بالذوبان في عالم المتسلط، والتماهي مع أسلوبه وإسقاط عجزها على الحلقات الأضعف.
حاولت جاهدًة تَبَني قيم المتسلط، فوقعت ضحية عقدة الاستعراض.
أما عن آخر الأساليب الدفاعية، العنف بكل أشكاله: العنف المقنع والرمزي والعلاقات الاضطهادية وأحيانًا التخريب. بسبب إحساسها بعدم الانتماء لهذا الزمان والمكان وكذلك الأشخاص.

وقد يكون الجنس، مصداقًا لهذا العنف، في مواضع شتى.
وكانت الأنوثة المحصورة بغواية الجسد والفتنة حينًا، وحينًا آخر الإفراط في التنكر لتلك الأنوثة من خلال الانخراط في ممارسات وتصرفات تتصف بالذكورة.
وقد يغلب أن تؤدي دور الأنثى ظاهريًا حتى من دون أن تعيش في علاقة حميمة.

10

في فترة ما، تلت كل ذلك.
تعددت نشاطاتي وتشعبت، بدأت بغواية ذاك الكاتب الإماراتي، الذي يُحَضّر، في دار النشر، كتابه ويسعى لطباعته ونشره.
اصطنعت محادثة تبدو عفوية، ورميت شباكي، وما أسهل أن يقع رجل في شباك امراة غاوية، جعلته يتابعني دائمًا، باتصالاته ورسائله.
أثرت شفقته عليَّ لما أعانيه من قهر وظلم، ليس أقله ما أخبره به عما يفعله "مباد" وكنت قد أضفت إلى الواقع تحويجة من الإضافات الممزوجة بمكر امرأة.
لم أكن بحاجة للمال، لدي منه ما يكفي ويزيد، ولكن أمتعني استنزافه هو أيضًا بعدما كنت قد بدأت ذلك مع "مراد".
أحظى بالاهتمام والمال أيضًا، كنت ما يشبه التنويم المغناطيسي بالنسبة له، مستعينة على ذلك بدهائي، وبضع صور مغرية أرسلها له عبر الهاتف، تكفي أن يطول تأثير التنويم الأنثوي الذي أمارسه عليه.
دفعته للمجيء إلى لبنان بحجة متابعة كتابه مع دار النشر. وبالفعل أتى، يحركه الشوق للقائي والرغبة في أن يكون بقربي.
وبعد تمنع وأنا راغبة، التقينا صباحًا في مقهى، وفي المساء قضيت منه وطرًا، معتقدًا هو أنه هو من يملك زمام المبادرة. ولم أنس طبعًا إظهار مشاعر الندم والذنب على اقتراف إثم منعت نفسي عنه سنوات سبع عجاف كما أوهمته أنها المرة الأولى التي أقترف فعل كهذا.
التقينا مرارًا خلال مدة بقائه في بيروت وقبل سفره ومغادرته. يظن أنه يراودني عن نفسي وقد شغفني حباً.

كما كنت قد اتصلت ب "نوح" بحجة السؤال عن خيارات تبديل السيارة، علّي أرمي سهمًا جديدًا أيضًا.

في أوقات فراغي الطويلة، أنشأت صفحة جديدة على الفيسبوك، اسميتها: Jnan، قصدت فيها جنان بمعنى جنات، بالإضافة ل"جْنان" بمعنى الجنون كما تقال بالعامية أحيانًا.
اخترت صورة "بروفايل" من صفحات الإنترنت: أنثى جميلة بشعر أسود، ذات بشرة سمراء، وعيون واسعة تزينها رموش هذبت بعناية، بلباس أقل ما يقال عنه أنه غير فاضح.
صورة تظهر وجهها ومؤخرتها، وهي وضعية ألفت على تكرارها الكثير من الفتيات مؤخرًا، وكأنها عندما لا تجد في وجهها ما يكفي ويرضي غرورها، ويرضي عيون الرجال، تلجأ إلى مؤخرتها.
كتبت ملاحظة، "الخاص ممنوع" أؤكد بذلك على أن كل ممنوع مرغوب.
وبي قناعة أن ذلك سيزيد عدد من تدفعه حشريته وغروره للمبادرة بالحديث. مع إدراكي أنها تكفي صورة بروفايل لأنثى جميلة، لتتخم الصفحة باللاهثين وراء نهد أو مؤخرة.
وضعت بضع صور مختلفة، كلها من الإنترنت صور لإناث مختلفات، لا يجمعهن الا لون الشعر الأسود. الكثير الكثير من أصدقاء الحساب الافتراضي لم يلاحظوا ذلك، ظنًا منهم انها كلها صوري، هم يقينًا لا ينظرون إلى الأنثى الإنسان فيها.
وبمدة بسيطة أتخمت الصفحة بطلبات الصداقة، يرسلها ذكور من كل حدب وصوب وعمر، فقط لمجرد وجود طيف امرأة، ناهيك عما لا يعد ولا يحصى من الرسائل دون ذات معنى، يغلب عليها التفاهة غالبًا، ولا تخلو خواطر من الشعر والغزل، وصور الورود والمناظر الطبيعية، في رسائل أخرى.
وآخرون يسترسلون بدراسات نفسية. ففي داخل كل رجل، طبيب نفسي، يستيقظ عند كل امرأة متعبة.

البعض الآخر يدلو بأفكاره حول:"الخاص ممنوع".
وبالتأكيد تكاد تكون الإيحاءات الجنسية هي الحاضرة دومًا في العديد العديد من المحادثات.
خبرت من خلال هذا الحساب الوهمي أطيافًا شتى من البشر أخص الرجال، وأنواع شتى من الاضطرابات الجنسية، حدثت الكثيرين، وخبرت الكثيرين وضاجعت البعض، وكنت أختار بين الحين والآخر أحدهم : سرير غواية.
عاودت الكرة بحساب وهمي جديد، وبصورة "بروفايل" لامراة منَقّبة تظهر فقط عينيها، وبإسم وهمي : "تقى".
والنتيجة واحدة، وسرير غواية آخر، أو ربما أَسِّرة.
لا أبيح سرًا أني لم أجد رجلًا في كل ذلك.

حدثت الطبيب بكل تلك الاضطرابات عندي وعما خبرته في علاقاتي.

الاضطرابات الجنسية هي مشكلات تتعلق بالجنس، تجعل ممارسة الشخص للجنس غير طبيعية، ناقصة، مؤذية لنفسه أو غيره. أو تؤدي به للانزعاج من جنسه الذي ولد فيه، ويتزايد انتشار الاضطراب الجنسي عامًا بعد عام لأسباب متعددة : إما لعوامل مرضية.
أو لمعاناة من تغيرات في الأسرة، لقلة التثقيف الجنسي.
أو بسبب المرور بتجربة جنسية مؤلمة.
أو لعوامل أخرى كتوقع الفشل أو الشعور بالذنب اتجاه العلاقات الجنسية أو فقدان الانجذاب.
وخطورة الاضطراب الجنسي تكمن في أنها قد تؤدي بصاحبها إلى حال من القلق والاكتئاب والحزن الشديد.
تعرفت على بعض هذه الإضطرابات، وأقول بعض لأني على يقين أنها قائمة لا تنتهي.
ليس أقلها إقتناء أو اشتهاء أو ارتداء ملابس الجنس الآخر.

- يعلق الطبيب: يعتقد البعض أن هذا راجع إلى صدمات الطفولة ونابع من نزعة لدى الطفل في تخطي الصدمات والعقوبات الأبوية.

الكثير من اضطرابات الخيال الجنسي، الاستثارة لأهون سبب، التلصص.
وقد يكون أخطرها :
البيدوفيليا: وهو ما يُعرف أيضًا باسم الاعتداء الجنسي على الأطفال.
بالإضافة للسادية، المازوخية..

- هل قرأت رواية جوستين حول السادية؟ أتوجه للطبيب،

ويغلب عليَّ الجدية في الحديث، لقد خبرت بعض ما ورد فيها.

في مجتمعنا الكثير من الاضطرابات النفسية، وجزء لا يتجزأ منها هي الاضطرابات الجنسية، الكبت في مجالات شتى من إحدى أسبابها.
كما وتتظاهر بشكل واضح جنسيًا، ثنائية التسلط والخضوع، قد يبدو في ظاهرها أن النساء هي الطرف الخاضع، ولكن في هذا المجال بالذات تفرغ هذه الشريحة من النساء الكثير مما لديها من ظلم وكبت ودهاء، على شكل تسلط وعنف، سواء بدا ذلك جليًا أو مورِس بشكل خفي.

11

"نوح"،
بعد لقائنا في معرض السيارات، تركته من دون أدنى شك متأثرًا بسحري وفتنتي.
في كل رجل فراغ ما، ينتظر امرأة أن تملؤه، لا بد من أن يرى فيّ شيئًا مميزًا، لذلك.
سأقترب منه بشكل مائل، ما بين المرأة الجادة الرصينة، والغاوية.
أثير اهتمامه وأبحث عن غموض يحرك حشريته. أرسل رسائل غامضة يحتار في تفسيرها، من دون أن يغيب عن مخيلته حضوري الآثر وكوني امرأة مرغوبة.
أُضخم هذا الفراغ، أوحي إليه، بطريقتي الخاصة، أني أنا وحدي من يسده. أخلق إغراءً، لي وله، في أن أجد نقاط الضعف لديه.
أوحى إليه أني أمنية لم تتحقق بعد، أشير إليه بطرف خفى، أني أستطيع قيادته نحوها.
"الإيحاء فن زراعة الأفكار فى عقول الناس بواسطة الرمى بتلميحات صعبة التحديد والتي تظهر لهم بعد عدة أيام كأنها أفكارهم الخاصة."
كيف لي أن أدخل في عوالم "نوح" الخاصة والغامضة، وأَخبر نفسيته ومزاجه. وأدور في فلك قوانينه وأستمتع بما يستمتع به.
إيماءات وإشارات، صدرت عني وعنه، جلها بشكل مرتجل، وإن تعمدت أن تكون أكثر سحرًا وأحيانًا بشكل تصريحات ورغبات معلنة بشكل صريح واضح.
رغبات إيماءات وتصريحات، تجعلنا فعلًا ندور في فلك واحد، نقترب من بعضنا وربما نصنع فعلًا عالمًا خاصًا بنا.

بعد لقائنا ذاك، انتظرت أن يحدثني، لكنه لم يفعل، هو من الرجال الذين يظهرون جدية وتسلط، وبالتأكيد ليس من الذين تجذبهم أي امراة.
أبقيته في حال ترقب، وربما هو من فعل ذلك.
في إحدى صباحاتي الهادئة، بحضور رفاقي الذين ألفتهم، أولهم القهوة، "نوح" ثانيًا وهو الذي أصبح يحضر في مخيلتي دائمًا. باغته برسالة قصيرة:

- عطر Angel.
- أجاب برسالة:

عندك "La Vie est Belle".

- ما كدت أجيبه ب Si.

حتى عاجلني باتصال صوتي يقول:
"La Vie est Belle

قلت له، هي خلطة عطور، ابتكرتها وأسعى لمعالجة مكوناتها ومعايرتها، علّي أحصل منها على أفضل ما يمكن أن تقدمه.

- أجاب: si

- ماذا قصدت ب" Si"، توافقني الرأي؟ أقول له.

لأني لا أظن أنك تعلم التفاصيل بما يتعلق بذلك، هي أحد أسراري.
ثم... عم نتحدث؟ عن "la vie" العطر أو الحياة؟
يقول "نوح": أستطيع أن أخمن أيضًا أن عطر "Angel"، تكرار حرف "ع" ليس خطأً كتابيًا.

- ربما تكون قد أَصَبت، على أي حال، أنا كنت أتحدث عن العطور.

هو عطري الخاص، أبوح بسره إليك، توليفة من Si و La Vie est Belle بمقادير معينة. أعتمده منذ مدة ليست قصيرة، أسميه "مونيكا"، على إسمي.

"من الصعب جعل الناس يصغون، فهم مستهلَكون فى أفكارهم ورغباتهم الخاصة، ولديهم قليل من الوقت لتلك التى تخصك. تكمن الخدعة فى جعلهم يسمعون."
عملت على هذا مع "نوح"، مع قليل من إظهار الضعف والهشاشة تجاهه، وإظهار نفسي بصورة المسحورة بشخصيته.
تيمنا بمقولة روبرت غرين، في كتاب فن الاغواء.

- يبدو أن حياتك، "belle". يقول "نوح".

بعد برهة من الصمت، والكلام، سردت عليه بعض مما بيني وبين "مراد"، رويت بعض الأحداث بنكهتي الخاصة، واصطنعت أخرى. شاركتني بعض الدموع حينًا، وخجل أتعمده حينًا آخر، بالإضافة لتجسيدي ضعفًا جسمانيًا ونفسيًا، كنت ألعب من خلاله دور الضحية.
نجحت في خلق الأثر الذي كنت أبحث عنه، خلطت الأماني بالحقائق. وما زلت أبحث عن أمانٍ سرية لديه قد تم إحباطها أو قمعها بطريقة ما.

سأكون بقربك دائمًا. يستكمل "نوح" كلامه.

- أجيبه: أعتذر اليك "نوح"، ربما تحدثتُ كثيرًا، وأعلم أنك كثير الأشغال ولا وقت لديك ربما.

- لا تقلقي، أولًا اليوم هو يوم عطلتي، ثانيًا كلنا لديه الوقت، عندما نريد.

- أقول له: اليوم ليس الجمعة ولا الأحد، أعتقد أنه الثلاثاء، وهو ليس يوم عطلتك الاسبوعي بالتأكيد.

- يقول "نوح" بشيء من الفكاهة، أنا كالمتاحف، عطلتي الأسبوعية الثلاثاء، وربما أشبهها بأشياء أخرى أيضًا.

- معلومة جديدة بالنسبة لي أن المتاحف تعطل يوم الثلاثاء. شكرًا لك. ربما قد تفيدني في سفري إلى بروكسل قريبًا، هذا الصيف. سأزور إذًا مدينة "Bruge" الثلاثاء وأترك المتحف ليوم آخر.

تبادلنا كلمات وداع وإطراءات ووعد ضمني أن نتحدث لاحقًا، وربما نلتقي.
مر ذاك اليوم وطيف "نوح" في مخيلتي. كنت أراه في الكثير من الصور والشخصيات وفي المارة عندما أكون في الخارج. وفي جولات التسوق التي أدمنتها مؤخرًا.

صار التسوق بالنسبة لي، في الأشهر الأخيرة، نشاطًا ربما أكافئ به نفسي عن الإحباطات التي أتعرض لها.
أجول على واجهات متاجر الألبسة، لا ينقصني شيء من الملابس أو الأحذية ، على العكس لدي الكثير ومنها ما لم ألبسه إلا في غرفة القياس عندما أشتريه.
ثياب أخرى أجد متعة في تأمل نفسي أرتديها، أُجمِّلها بجسدي، لبستها مرة أو اثنتين على الأكثر.
كنت أذهب للتسوق، أركن سيارتي وأسير ساعات ضمن المدينة.

ركنت سيارتي بالقرب من 'زيتونة باي". تعمدت إيقافها قرب أحد المقاعد المنتشرة على الكورنيش حيث تجلس فتاة تبدو متوسطة الطول، ممشوقة القد، أنيقة بلباسها البسيط، تيشرت وبنطال جينز. بيدها دواة وقرطاس ترسم المكان، البحر والخليج، المراكب واليخوت المنتشرة في المكان، تضيف إلى الرسم طيف امرأة غير موجودة واقعًا في المشهد، ربما فقط توجد في مخيلتها.
وكأن للمرأة محطات إلزامية في خيال وواقع كل إنسان.

تأملت ما ترسم بحشرية عندما مررت بمحاذاتها، نظرَتْ إلي نظرةً سريعةً من دون اهتمام رافقت إبتسامةً على محياها ثم عادت إلى عالمها بعيدًا عني وعما يحيط بها.

وعدت أنا إلى عالمي، وإلى المشي في محيط خليج زيتونة باي، أو ما كان يعرف بخليج سان جورج حيث قتل القديس المذكور. هو واحد من الأماكن السياحية الملفتة في بيروت، وواحد من أشهر المعالم التي تم تحديثها في لبنان. حيث يقع في ركنه الشرقي مرفأ بيروت الدولي.

ويمتاز بقربه من العديد من المعالم التاريخية والطبيعية البارزة مثل كورنيش بيروت ومتحف بيروت الوطني و قصر سرسق وشارع الحمرا.

منه توجهت باتجاه مركز المدينة "داون تاون" أقود سيارتي التي سلّمتها للموظف في أحد فروع N&M ليركنها في المكان المخصص لذلك.

أمضيت ما يزيد عن الساعتين، أختار حذاءً من هنا، وحقيبة يد من هناك، فستانًا قصيرًا تارة وآخر طويل. بحثٌ يطول عن ثيابٍ مميزة دون أن أعثر على المطلوب، وكل ذلك ربما لعدم حاجتي إلا لجديد.

في النهاية نسَّقت "إطلالة" مسائيّةً أنيقةً كالتالي: فستانٌ أسودٌ قصيرٌ مزينٌ بخطٍ رفيعٍ من أحجار الراين، وهو ما يحاكي الالماس، تأتي خطوط العنق العميقة بأكمام طويلة بينما كانت الأكتاف مكشوفة .

إطلالة مصحوبة برونق الساق المكشوفة حتى مستوى الركبة.

الكثير من التفاصيل التي أهتم بها، جعلَته متوازنًا، وجعلت إطلالتي آسرة عندما جربته.

وكون الاطلالة غلب عليها اللون الأسود، فقد قررت تزيينها باكسسوارات باللون الأحمر، فاخترت "صندلًا" من المخمل وحقيبة يد أنيقة من "louis Vuitton" باللون الاحمر.

اللون الأحمر من الألوان الجميلة و الجريئة واللافتة للنظر ولا تخلو من الإغراء، الأحمر يعمل على إثارة مشاعر قوية لدى الشخص. محب اللون الأحمر لديه بشكل عام قوة الجسد وجماله وهذا ما يكسبه ثقة بنفسه لا تتزعزع.

جربتها مجتمعة، بدا جمالي حقيقيًا يتفوق على نجمات "إنستغرام"، التي تضع عليها برامج التصوير الاحترافية اللمسات الأخيرة من الجمال المصطنع، بعد ما قد تم تجميله فعلًا بعمليات التجميل والحقن والنفخ والشفط. لا أعلم لم كل هذا الإفراط في السعي نحو الجمال. بالتأكيد لا يغيب مصطلح ومفهوم تسليع المرأة هنا، سواء تعي النساء ذلك أو لا.

أخذت كل تلك الثياب وملحقاتها إلى قسم المحاسبة لأدفع ثمنها، وفي اللحظة الأخيرة، وبتردد النساء المعهود في اختيار وشراء الألبسة، قلت للمحاسب:

لا أريد هذا الفستان، ربما لاحقًا سأعود لأبتاعه أو لأختار غيره، فقط سأشتري الحذاء والحقيبة.

تركت H&M، انتظرت عامل ركن السيارات "فالي الباركينغ" خارجًا ريثما يحضر سيارتي.

بالكاد كنت أحدث نفسي: لعله تأخر قليلًا، أشعر بذلك، وإذ بسيارتي قد وصلت إلى محاذاتي، سمعت صوتًا محببًا يخرج منها ويترك لمساته على روحي قبل أذني يقول:

اصعدي بقربي. سنتجول قليلًا علّنا نجد مكانًا مناسبًا نكون فيه معًا.

تسمرت في مكاني، تجتاحني الدهشة. إنه " "نوح" يقود سيارتي بديلًا عن عامل "الباركينغ". صعدت في سيارتي، بقربه وكأن لصوته وحضوره سحر وسطوة.

قال لن تكتمل أناقة ما اشتريتِ من دون الفستان، أحضرته لك، إنه هدية.

أحسست برعشة أو قشعريرة وتعرق، لم أحرك ساكنًا ولم أنطق ببنت شفة.

بحركةٍ عفويةٍ وربما لا ارادية، تحت تأثير مكر وجوده بقربي، وربما سطوته المحببة، طبعت قبلة تبدو بريئة على خده، وأخرجت قارورة العطر خاصتي، التي أسميها "مونيكا"، وضعت القليل منها، ورششت الكثير منها عليه، وقلت له انها هدية لك.

ولكن كيف حدث كل ذلك، سيارتي والفستان وأنت.

-أجابني: هذا المتجر لي أيضًا.

- حقًا، وماذا تقصد بN&M. ربما N حرف اسمك.

- نعم، هو كذلك، والحرف الآخر لا معنى له، يأتي حرف m في الابجدية بعد n،

ولكن الحروف أو الأشياء، يعاد ترتيبها كما أشاء أنا عندما يتعلق الأمر بي.

- أي ثقة أو عُجُب لديك. أرد عليه.

أمضينا ما تبقى من اليوم معًا، كُسِرت الحواجز بيننا. وجدته رجلًا مختلفًا، أضف إلى كل صفاته الشكلية المميزة والجذابة، وكذلك حضوره وطلته الساحرة، نبرة صوته الجهورية الآسرة. يجمع بشخصيته المتناقضات.
ومنذ ذلك اليوم صرنا على موعد ولقاءٍ وغواية دائمة. يبذل الكثير من الجهد من أجلي، لإرضائي، لدعمي، لزرع الإبتسامة على وجهي.
كان حريصا على استمرار العلاقة معًا، رغم ما يسودها من زعزعة في أركانها، كلانا متزوج، وهو من الأشخاص الذي يبدو عليه الحس الأمني والحذر الدائم.

12

واظبت على المشي بشكل دوري على أمل أن أصل لوتيرة مرتين أو ثلاث مرات أسبوعيًا. المشي بالنسبة لي أكثر بكثير من تلك الحركات الرتيبة اللاارادية.

يفضل المشي على معدة فارغة، وذلك لأن الدورة الدموية تنشط بعد تناول الطعام، والضرر يكون أكثر من الفائدة. كما يجب البدء بالتدريج، أي عشر دقائق في اليوم ثمّ عشرين دقيقة، وهكذا حتى الوصول إلى المدة الزمنية المطلوبة. هذا ما أخبرني به الطبيب.

ارتديت ملابس رياضية "survêtement" وحذاءً مناسبًا مريحًا، بعد أن أخذت حمامًا منعشًا. توجهت إلى الكورنيش البحري للبدء برياضة المشي، ترافقني فكرة التسوق أيضًا بعد الرياضة، على الأقل هذا ما أفكر به كخاتمة لهذا المشوار، التسوق هوسي وهوس الكثير من النساء.

أمشي على الأرصفة والأماكن المُخصّصة للمُشاة، أجول على الكورنيش البحري، لمدة لا تقل عن ساعة متواصلة.

في كل مرة أقرر عدم التوقّف في أثناء المشي، إلا عند الضرورة، وهذا ما يُنصح به في أثناء ممارسة رياضة المشي، لكن قلما ألتزم بذلك، تستوقف ناظري الكثير من التفاصيل والأشخاص: أنظر إلى ما يجول حولي بطريقة مختلفة تمامًا عما أشاهده في أثناء قيادتي السيارة.

أتأثر بما أشاهد، تتغير سرعة المشي وطريقته متأثرة بشكل واضح بما حولي، للأطفال تأثير خاص عليّ، يعيدون إليّ تلك المشية الطفولية ما بين المشي والقفز وتناوب حركة الساقين إلى اليمين واليسار بالتتالي.

للطبيعة والجمال واللون الأخضر المتمادي مع السماء تأثيرٌ أيضًا، وهو قليل نسبيًا في هذه المدينة، بيروتتي كما أسميها أحيانًا، بسبب كثرة

العمران. ورغم ذلك أجد ما فيها الكثير من المحطات والأماكن التي تخلق فيّ دافعًا لأحلق في جمالها وللتأمل في روعة ما خلق الله وأفسده البشر.
تلفتني الكثير من التفاصيل، أصنع بمخيلتي قصصًا للمارة والجالسين والبائعين المتجولين. تلك الفتاة أظنها رسامة، وآخر كثير الالتفات يحمل حقيبة جلدية صغيرة، أظنه مروج مخدرات أو حشيش.
وذاك وتلك وهؤلاء، كلهم قصصٌ وهواجس وأحلام متنقلة، وأفكار شتى تروح وتجيء أغلبها صامتة، وأخرى ينطق بها أهلها حتى ليُسمع صوتهم يتكلمون وحيدون، بوعي منهم بذلك أو لاوعي. ربما يظن البعض أن من يكلم نفسه بصوت مسموع قد أصيب بمس من جنون، ولكن قد يكون قد وصل لدرجة متقدمة من الألم... أو ربما الوعي والقدرة على مواجهة الذات.
كلٌ له قصة، كلٌ له هموم، كلٌ يعالج مشاكل كثيرة تعترضه، ويشعر أنها أكبر المشاكل التي من الممكن أن يتعرض لها أحد. مشاكل تشكل عائقًا للحياة وللمضي قدمًا.
الأطفال فقط هم من يشعرون بالسعادة دائمًا، تكاد تكون الطفولة هي الفترة الوحيدة الناصعة السعيدة الخالية من الهموم.
بدأت من بداية الكورنيش البحري متوجهةً لشارع الحمرا، هناك حيث تقف رياضة المشي ويبدأ شيء آخر مختلف: الكزدورة والتسوق.
شارع الحمرا هو "شانزليزيه بيروت"، أمشي بهدوء بمحاذاة المحال التجارية والمقاهي وما أكثرها. مقاه جديدة تلبي رغبات السياح، تقدم بعضها أو جلها بشكل كبير "النرجيلة"، وأخرى طالما كان يرتادها فنانون وأدباء وناشطون اجتماعيون وسياسيون وغيرهم،
مررت بمقهى جديد، يكاد يخلو الا من سيدةٍ تبدو وكأنها تراقب المارة ، ثم ألقيت نظرة خاطفة على متجر مجاور، لأحد الماركات العالمية، في ذلك الوقت تمامًا تلقيت رسالة نصية شتتني، كانت مجرد رسالة دعائية، ثم نظرت بعيدًا مجددًا، كل ذلك حدث ببرهة، بوقت قصير جدًا.
وعندما وقع نظري مجددًا على المقهى مرة أخرى تكَّون لدي شعور غريب، شعور بأني رأيت كل هذا من قبل، وأني جلست في هذا المقهى،

وحدثتني تلك الفتاة، حدث ذلك للتو على الرغم من عدم وجود ذاكرة واعية به.
أي أنه تمت معالجة المعلومات والأحداث على مستوى ما، ولكن ليس بشكل كامل.

ظاهرة سبق رؤيته "Deja vu"
يتهيأ للشخص، تكرار حدوث موقف أو مشهد ما، بالرغم من أنه لم يسبق حدوثه فعلًا. أو قد يشعر بأنه قد سبق وأن رأى مكانًا يزوره لأول مرة أو شخصًا آخرًا لم يره من قبل. قد يكون الشعور قويًا جدًا وحقيقيًا جدًا. الإحساس به لا يستغرق عادة أكثر من بضع ثوانٍ، ولا يوجد ما يمهد لحدوثه.
إحدى الفرضيات هي أن "deja vu" سببه الذاكرة، مثل أن تكون قد واجهت شيئًا ما، لكن لا يمكن لعقلك الواعي تذكره، وعندما تصادف شيئًا مشابهًا فإنك تشعر بالألفة ولكن لا يمكنك استدعاء الذاكرة.
نظرية أخرى تعزو الزاهرة إلى نوبات دماغية طفيفة. فمن المعروف أن الأشخاص المصابين بالصرع يعيشون تجربة "deja vu" بشكل متكرر، ومن الممكن أن يكون سبب ذلك عند الأشخاص غير المصابين بالصرع هو نوع من النشاط الشبيه بالنوبة.

دخلت المقهى جلست إلى أول طاولة وصلت إليها، كنت على يقين بأن السيدة ستقترب مني وتحدثني.
جلستُ تؤنسني النرجيلة، الصديقة اللدودة، أرتشف كوبًا من الشاي الأخضر، أحدق في هاتفي متصفحة الفيسبوك الذي يُفقر العقل ولا يغني من جوع المعرفة الحقّة شيءً، رغم تلك المساحة الواسعة التي احتلها من يومنا ومما نتصفح من صفحات إلكترونية.
كثيرة هي الأشياء التي ندمنها بكل معنى الكلمة من دون أن نعي ذلك أو نعترف ومن دون أن تكون لنا القدرة حقًا على تجاوزها والاستغناء عنها. ليس أقلها الهاتف والفيس بوك والنرجيلة والتسوق .

أتصفح هاتفي، من دون أن أعير تلك السيدة أي اهتمام، ما خلا نظرة عابرة بحجة أني أرمق المارة والمكان بنظرات فضول.
فعلًا تقدمت نحوي، سيدة ذات حضور وإطلالة توحي بالثقة والمكانة، بلباسها شبه الرسمي تنورة أسفل الركبة وبلوزة فوقها جاكيت، تنتعل حذاءً رفيعًا ذي الكعب الرفيع. تكاد توصف بالقصيرة من ناحية الطول وهي ذات شعر قصيرأيضًا، ووجه مدور، وأنف لافت للنظر دون أن يكون من صنف الأنوف القبيحة ولا حتى الجميلة. وشرعت تبعد الكرسي المقابل لي قائلة:

- هل يمكنني الجلوس؟ وكانت قد جلست فعلًا قبل أن تكمل كلامها.

- ها قد جلستِ، تفضلي. أجبتها.

- فقط كنت أريد أن أسألك إن كنت أنت من مر على متجري لبيع اللوحات، وطلبتِ مني لوحة مقلدة عن لوحة "إصرار الذاكرة" لـ سلفادور دالي. اللوحة التي يظهر فيها عدد من الساعات التي تشير إلى الوقت، وهي تبدو مرتخية وفي حال مائعة.

- تمامًا،أنا هي.
نظرت اليّ نظرة تعجب وشرود، من دون أن تنطق ببنت شفة.

تابعتُ قائلة لها: هل أُكملتِ رسمها أو أنك تشتركين مع أحد زملائك في ذلك، قلتِ لي أنك رسامة؟ هل تذكرين؟
كنت أصرّ أن تكون اللوحة مطابقة تمامًا للأصل.

بقيت صامتة لبرهة، ثم قالت:
- هل تعلمين ما هو أهم من كون اللوحة مطابقة للأصل؟

أرفع حاجبي الايسر محدقة بها بعين واسعة مع خفض الحاجب الايمن، و انحناءة بسيطة للرأس دون أن أقول شيء.
الأهم من كون اللوحة مطابقة للأصل، إني اختلقت كل هذه القصة لأحدثك، لم يطلب مني أحدًا تقليد هذه اللوحة. لكن ردك جعلني أفقد دفة الحديث الذي بدأته.

- إذا ستقلدين لي لوحة "نساء أفينيون". لوحة بيكاسو، تعرفينها؟ نساء خمس عاريات، نظراتهن ذابلة موجوعة محيرة يحدقن بجرأة. أقول لها.

- تضيف: بعدما فقد جسدهن عنفوانه وتواجد وللأسف مع الأشياء الرخيصة وفقد بالتالي براءته. أعرف هذه اللوحة تمامًا.

فارتفعت قهقهتنا معًا، التي امتزجت بغصة شعرت بها أيقظتها رواسب خلت في ذاكرتي.
شاديا. اسمي شاديا تقول.

جلسنا، وبشاشة تُطَيب محيانا نحن الاثنتين, كُسِر حاجز اللقاء الأول أو التعارف الأول سريعًا. تحدثنا بعفوية وعلى عجل ثم تهيأتُ للمغادرة، واستعدَّت هي كذلك بحجة أنها كانت تنوي المغادرة، وبالفعل خرجنا معًا من المقهى، وكلٌ له وجهة مختلفة.

قالت كنتِ قد قلتِ لي: بالإضافة لما يتعلق باللوحة أنك تجلسين عادة في حديقة السيوفي.

- أجبتها ضاحكة : أنا لم أزرك في متجرك ولم أخبرك بشيء، وحديقة السيوفي لا أعرفها أبدًا، أعرف حديقة الصنايع القريبة من هنا. وأكثر من ذلك لم ألتقيك قبل هذا الوقت وأنت تعلمين ذلك علم اليقين.

- قالت مبتسمة: بالتاكيد لم نتحدث عن اللوحة وعن الحديقة، أعلم أني من اختلق هذه الحادثة بغاية محادثتك، لا أعلم لم فعلت كل ذلك وأي إحساس أتاني.

ولكن من قال أننا لم نلتقي من قبل، ربما تواجدنا معًا و مرارًا في مكان ما، طريق، متجر أو احتفال، أو الكورنيش. ولكن القدر لم يكن قد أكمل ما رسم لنا، فلم نأبه أو نشعر بوجود الآخر.

أو ربما التقينا في عالم الذر، ثمة أشخاص تشعر بتآلف الأرواح فيما بينهم من اللحظة الأولى.

نكمل حديثنا ونمشي سويًا، ربما دونما إدراك لذلك. لنجد أنفسنا أمام حديقة الصنائع.

- أقول لها بِجَوٍ من المزاح: قلتِ لي في لقائنا الإفتراضي: أنك ستأتين إلى هنا.

- أجابت: لا أعتقد، أنا لا أحب هذه الحديقة، فيها ازدحام وضجيج، كما أنها هي المكان العام الوحيد الذي نفذ فيه أول حكم إعدام أمام الناس في العام 1982، وكانت المرة الأولى والأخيرة لما تركت من أثر اجتماعي سلبي.

- لا أعلم ذلك، ربما تكونين محقة، خطأٌ واحدٌ أو وَسْمٌ سلبيٌ واحد يطغى على كل ما هو أبيض.

فنقطة سوداء واحدة في ورقة بيضاء، كفيلة بأن تطغى على ما نرى. الأعم الأغلب ممن ينظر لا يرى إلاها. القلة من يُبصر صفحة بيضاء يشوبها نقطة سوداء تُهمَل.

فهذه الحديقة إن كان قد نفذ فيها حكم إعدام واحد، فاعلمي أيضًا أن فيها مُثِّل فلم "حبيبتي" عام 1974، عندما كان لبنان سويسرا الشرق. وأنها

أخذت اسمها مما كان سابقًا "مبنى الفنون الجميلة والصنائع"، وأصبح حاليًا المكتبة الوطنية.
وبالتأكيد فيها ألف قصة حب ولقاء وشوق، وضحكات، تفوق يقينًا ذكرى حادثة الاعدام تلك.

- على أيّ حال، هذه بطاقتي، عليها رقم هاتفي، وعنوان متجري، أهتم بالفن عمومًا والرسم خاصة علمًا أني لست رسامة محترفة، فقط هاوية رسم، لدي محاولات متواضعة. وبعيدًا عن الرسم، أعمل في "بيت بيروت" أنا بانتظارك، وبالمناسبة هو ليس بالبعيد من هنا.

"بيت بيروت" او كما ينعته البعض: "البيت المهدم، أو تبع الحرب الأهلية" علمًا أنه متحف ومركز ثقافي حضري، تُرِكت بعض أثار الحرب الأهلية عليه، من آثار طلقات نارية أو نوافذ مهدمة، لتكون ذكرى لها، وواعظًا لنا، علّنا لا نعيد حماقاتها.

ليست كل الحروب شريفة بل ربما كثير منها حروب عبثية رغم أن بعضها يستند على حق ومعتقدات راسخة وأهداف سامية، ولكن تبقى الحرب هي الحرب، مقرفة، ظالمة للكثيرين من أهلها، حتى للمنتصر.
الحرب الاهلية اللبنانية، وهي في صميمها ليست كذلك بالتأكيد، هي حرب كان وقودها أهل البلد، الذين استُعملوا لإبقاء هذه النار مشتعلة لإستكمال نضوج ما يُطبخ للمنطقة عمومًا والبلد خصوصًا.
فسُميت ربما أهلية، لا لأنهم تحاربوا فيما بينهم ظاهريًا، بل ربما تخليدًا لذكرى كل هؤلاء الضحايا والمقهورين والمظلومين من أهلها.
كم من ظلم تعرض له هذا البلد وأهله.
هي حرب عنوانها حرب بين الأديان، والواقع أنها كانت تُحرَّض بهذا العصب الطائفي، ومن خلفه قوى متسلطة ظلامية غايتها إحكام الخناق على البلد والمجتمع واخضاعهم ليكون لهم اليد الطولى فيما بعد. هذا من

جانب ومن جانب آخر قوى كان لا بد لها من الوقوف بمواجهة مشاريع كهذه.
هي حرب سميت باللبنانية، والواقع أنها كانت بالوكالة وإنما على الأراضي اللبنانية، كانت مسرحًا للكثير من القوى الفاعلة والمؤثرة وللكثير من أجهزة المخابرات العربية والعالمية.

13

في احدى مواعيدي مع "نوح"، كان لي رغبة أن أبدو مميزة ومختلفة، توجهت إلى صالون التجميل باتشي اي لوتشي "pace e luce" وخرجت منه بإطلالة ملكية آسرة.
المكان في أحد تفرعات شارع الحمرا وقريب من حديقة الصنايع، تذكرت شاديا ولقاءنا الأول، وعملها في مكان قريب ورغبتنا الدائمة في اللقاء.
قالت إنها تعمل في متحف بيت بيروت، في اللجنة الاستشارية التابعة لمساعد مدير المتحف، يبعد حوالي عشر دقائق بالسيارة.
كنت قد تحدثت مرارًا معها عبر الهاتف وتطبيق "الواتساب". امرأة تظهر ذكاءً في التعامل، تحترم آراء الغير وهي كذلك مستمعة جيدة، لديها مهارات تواصل قوية، إضافة لثقافتها الواسعة واهتمامها بدراسة شؤون المجتمع عمومًا والمرأة خصوصًا.

وصلتُ إلى المكان واتصلتُ بها أخبرها أني في الجوار متجهة للمتحف.
استقبلتني بحفاوة واهتمام، دخلنا المكان، إلى إحدى قاعات العروضات الفنية، نتجول ونتحدث بشكل عام: عن الكلمة أو الصورة... عن بناء وترميم هذا البيت المتحف.
أخبرتني بأن المبنى القديم، وهو المبنى المعروف باسم مبنى بركات والذي يعود لإحدى العائلات اللبنانية قبل الحرب، المؤلّف من أربعة طوابق، تم ترميمه مع المحافظة على بعض آثار الحرب، كالطلقات النارية المتعددة التي حفرت به وحفرت في ذاكرة كل بيت.
أضيف مبنىً جديدٌ من أحد عشر طابقًا ملاصقًا له، يمثّل مرحلة "الحداثة" في بيروت.
باختصار، هو متحف تاريخ وذاكرة بيروت، بالإضافة لما يضم من أقسام: قاعة محاضرات، وقاعة استقبال، ومكتبة سمعية بصرية تجمع كل الكتب

والوثائق والدراسات المعمقة عن تاريخ المدينة ورجالاتها وعن تطور المدينة المدني والعمراني والاجتماعي والاقتصادي والثقافي. كما يضم معرضًا دائمًا، يضم مقتنيات العائلات التي سكنت المبنى والتي تُركت في "تتخيتاتهم". وقد استخرج من "نفايات" إستديو تصوير كان موجودًا في المبنى ستون ألف "نيغاتيف"، تحكي قصص سكان بيروت من خلال أعراسهم وأعياد ميلادهم ومناسباتهم.

تقول "شاديا".

- مكان جميل ومميز، يجمع ما بين التاريخ والثقافة، والحضارة والحداثة. عله يكون أحد مجالات تحفيز الطاقات الذهنية والابداعية للمثقفين والفنانين كما المجتمع بشكل عام، في العديد من المجالات، للمضي قدمًا في تطوير الإنسان ثقافيًا وفنيًا وعلميًا وبالتالي تطوير البلد.

بالتأكيد، هي أحد أهداف وسياسات إنشاؤه. ولدينا خطط عمل مستدامة في هذا المجال. وهو مجهز "لوجستيا" لذلك.

المبنى مجهّز لاستضافة معارض للفنانين، لما للفن من تأثير. أقصد الفن المنبثق من روح المجتمع نفسه لا المستورد من الخارج، الفن الهادف الذي يشترك في بناء الإنسان وتحفيز ذهنه وتحفيز المجتمع بشكل سلس ممتع، بعيدًا عما يشبه تلقين الطلاب في الجامعات للعلوم والمعارف بشكل ببغائي ومكرر من دون الأخذ بعين الاعتبار لماهية المعرفة التي غالبًا ما تكون مستوردة من الخارج من الألف إلى الياء وتنقل إلى الطلاب بصورة حرفية من غير إعمال روح النقد والشك بها.

هذا من جانب، ومن جانب آخر تنظم العديد من النشاطات وورشات العمل، ذات الهدف التثقيفي والعلمي والحضاري بالإضافة لرعاية المثقفين بمجالات شتى.

أن أي مجتمع يقوم معناه الحقيقي على نشاط أفكار أفراده وطاقاتهم الذهنية وما ينتج عن هذه الأفكار من إنتاج إبداعي من المفروض أن يؤسس لقاعدة ثقافية علمية وعملية يبنى عليها للنهوض بمجتمع واع حر متطور.

- أضيف أنا: وحرمان الأفراد من هذه الأفكار والمشاريع الذاتية عبر "هدر الفكر" هو حرمان للمجتمع من صحته وكفاءته. أليس كذلك.

- تستكمل شاديا: إن "هدر الفكر والوعي والطاقات" وما يتضمنه من فقدان مناعة المجتمع، يجعله جثة هامدة وبالتالي عديم القدرة على مقاومة الاستبداد والعصبيات واستفحالهما. من هنا يتضح مدى إصرار الاستبداد والعصبيات على هذا الهدر الثلاثي، الفكر والوعي والطاقات، والنجاح في فرضه وتعميمه .

إن الفكر الإبداعي قائم من أجل زيادة وتصحيح وعي المجتمع والعالم وبالتالي التأثير فيهما وفي واقعهما.

إن الشلل الفكري سيؤدي إلى عدم وعي الإنسان لذاته ولمجتمعه، وبالتالي فلا يمكن لمجتمع يكون أفراده عديمي التفكير أن يكون مسيطرًا على موارده وإمكانياته ومشاريعه. وهذا ما ينتجه التسلط والقهر الممارس على المجتمع.

- تمامًا، في أماكن عدة تشعرين بأن شيئًا ما أو ربما سياسة ما تسعى لإبقاء الإنسان في مجتمعنا في الحيز البيولوجي المحض من حاجاته وحياته، وظائف الأكل والنوم والجنس والانفعال. وبشكل خاص فيما يتعلق بنصف المجتمع، أعني النساء. ذلك سيؤدي بشكل مؤكد إلى ما يشبه ضمور الدماغ عضويًا، وقصور الفكر والابداع .

وكوني امرأة، دائمًا ما يحضر في ذهني صور وقصص الكثير الكثير من النساء اللاتي خبرتُ حياتهن وتفاصيلها، فلا شك في أن المرأة ضحية في ذلك، وكذلك الرجل أيضًا وإن كان بطريقة مختلفة.

سياسة الإلهاء: لتحويل الأنظار والأفكار والمواقف عن القضايا الحساسة والمصيرية. أضف إلى ذلك، موضوع هجرة الأدمغة: حالات من هدر الطاقات العلمية في المجتمع بما يعرف بظاهرة هجرة الأدمغة من وطنها

الأم إلى أوطان أخرى تقدر العلم والمعرفة وتعطي المفكر والمخترع حرية حقيقية لينمّي أفكاره ويستكمل أبحاثه،

- صحيح، عندما يكون الشباب محروم، كما هو معروف، من تنمية مواهبه بصورة فاعلة وحرة، ستنشأ في هذه الظروف فئات من الشباب عاطلة عن العمل والفكر والمبادرة ضائعة الملامح مهدورة الكيان والإمكانيات.

"شباب الظل"، هي الشريحة الفائضة "التي لا تدخل في حساب السلطة ومخططاتها إلا في مجال الحذر منها وقمعها، لا في مجال تطويرها والاستفادة من طاقاتها وإمكاناتها، وهذا يؤدي إلى حرمانهم من الوعي الحقيقي لضرورة المشاركة بصناعة المصير.
حرمان الشباب هؤلاء وبالتالي حرمان كامل المجتمع.
"لقد سيطرت التفاهة على العالم حتى أصبح الحديث عن الثقافة ضربًا من العبث العقلي في العصر الراهن فالإنسان الحالي لا رغبة له في التأمل والتفكير ولا وقت له لذلك فلقد حاصره التافهون من كل حدب وصوب. وحاصروه بالصور حتى أصبحت الصورة هي الوسيلة الوحيدة للتفكير وأصبحت الكتابة غريبة في العصر الراهن وغدت الكلمات مشردة تبحث لها عن مأوي بين الأنامل فلا تجد".

- هل دعوتني لنتحدث عن هدر الفكر والإنسان المقهور وما ينتج من تسلط وقهر اجتماعي وبالتالي التخلف.

أين حسن الضيافة، و إرضاء غرور المرأة.
أقول ل "شاديا" ذلك، بجو من المزاح والتحبب، ولكن كل ما فيّ يوحي أني كنت مستمتعة بهذا الحديث، وبهذا اللقاء والجولة داخل البناء.
أجد مصداقًا وإسقاطًا لكل ذلك في الكثير من الأشخاص الذين أعرفهم.

- إذا لنترك هذا الحديث لوقت آخر . تقول شاديا.
سأدعوك لتناول الغداء سويا، وربما نتحدث عن أمور أخرى.

اعتذرت منها متذرعة بحجج واهية ربما لم تخفَ عليها، وتركتها للقاء "نوح"، موعدي معه قد أصبح قريبًا، تواعدنا على تناول الغداء سويًا، أمضيت وإياه وقتًا جميلًا ممتعًا. وقد ظهر جليًا ذلك الاهتمام المتبادل بيننا والألفة في الحديث، والشوق للقاء آخر قادم.

14

عرسًا خياليًا بامتياز، أقل ما يقال عنه أنه من أعراس وحفلات الأميرات، كل ما تقع عليه العين يعطي انطباعًا أنه حفل زفاف ملكي أسطوري.

كان لافتًا التفاصيل الفريدة التي تُميز الكثير من الأمور وما تضفي من إثارة على الحضور، واستخدام الإضاءة بطريقة مبتكرة لإضافة مزيد من الجمالية والجاذبية على المكان الذي يعد من أفخم وأغلى الفنادق في بيروت. وصولًا إلى كل التفاصيل الصغيرة التي تميز حفل الزفاف الفاخر حتى إطلالة العروس الراقية والساحرة، كل ذلك كلف مبلغًا خياليًا.

ما تزينت به العروس من حلي وزينت به إصبعها، خاتم زواجها به حبة ألماس من 2 قيراط. و ساعة يد من مرصعة بحبات ألماس أيضًا، ناهيك عن الأساور والتاج التي ارتدتها من الذهب الأبيض والألماس.

بالنسبة إلى فستان الزفاف الذي تألقت به العروس وسحرت به الحضور، فستان زفاف فخم بقماش الدانتيل المخرّم وبقَصة منخفضة يظهرها عارية الظهر. لم يكن فستان زفاف كلاسيكي، لأنه ضيّق قليلًا، غَمَر منحنيات جسمها بشكل مثالي وبتخريماتٍ بيضاء متشابكة، و بقماش دانتيل يصبح أكثر شفافية عند منطقة الصدر. أمّا الطرحة، التي كانت طويلة من دون إفراط في ذلك، تضيف رونقا للإطلالة الأسطورية .

فستان العروس، حلم كل فتاة.

الفستان الأبيض ثوب الزفاف الملكي، كانت العرائس الفقيرات لا يخترن أثواب زفاف بيضاء ناصعة في أيام أعراسهن. حتى ظهرت صور الأميرات والملكات بأثواب زفاف بيضاء. وكان ذلك قبل القرن التاسع عشر، حيث انتقلت موضة فساتين الزفاف البيضاء إلى عرائس عامّة الشعب، بعد تصوير حفل زفاف الملكة فيكتوريا من الأمير ألبرت في عام 1840، وظهرت الملكة بثوب زفاف أبيض من الدانتيل، فتمسّكت العرائس بهذا اللون الذي كان قاصرًا على الأثرياء، ويتعلق بالتباهي بالثروة، وليس رمزا للنقاء والبراءة.

بدت لحظة دخول العروس إلى الحفل مثل الخيال، موسيقى وإضاءة رائعة رافقت الحضور منذ بداية الحفل، ومشاركة الحضور باختيار بعض المقطوعات الموسيقية والغنائية.

ورويدًا رويدًا بدأ الستار يرتفع ليكشف عن العروس ووالدها اللذان التقيا بالعريس عند منتصف درج طويل فسلمها الوالد له، ودمعت عينا العروس في هذه اللحظات المؤثرة، وزاد من حميمية الجو ورقيها صوت أخت العروس التى استلمت "الميكرو" لتغني بصوت شجي جميل أغنية "اليسا: ع بالي حبيبي"
فيما تسير متمايلة تجاه العروسين اللذين صارا على مقربة منها، وتكمل الغناء لتعطي "الميكروفون" حينًا للعروس ثم تستعيده منها ويتشاركان سويًا بالغناء منفردتين أو مجتمعتين:
"وصير ملكك والدني تشهد".
ومجددًا تشارك العروس غناء اختها ببضع كلمات:
"عبالي تكملني واسمك تحملني".

نجلس أنا وشاديا إلى إحدى الطاولات وما فيها وعليها من الفخامة الواضحة، والبذخ المفرط.
أحدث شاديا: لماذا لا تخرج المرأة من هذه التبعية اللا إرادية للرجل، حتى في المجتمعات المخملية ومجتمعات الفنانين؟
لماذا تريد أن تشهد الدنيا أنها ملك عريسها؟ صك ملكية وشهادة الحضور. ولماذا تعتبر أن كمالها مرتبط به وبإسمه؟
تجيب شاديا: يكفيك فلسفة، وإن كنت واياك لا أظن أننا نستطيع تجاوز هذه الأفكار وهذه "الفلسفة".

كنا قد تبادلنا أنا وشاديا العديد من رسائل "الواتساب" وبعض الإتصالات، والحوارات التي لا تغيب عنها المواضيع الاجتماعية والنفسية كالعادة .واتفقنا على لقاء قريب وربما لقاءات، من دون أن نوفق إلى أكثر من لقاءات عابرة سريعة تعد على أصابع اليد الواحدة. رغم ما كنا عليه من التخطيط مرارًا لموعد أو لقاء أو مناسبة قريبة ستجمعنا يومًا ما.

كثيرة هي المرات التي نرغب بلقاء أحدهم، صديق أو رفيق طفولة أو ممن نأنس بهم، وتكون رغبتنا صادقة، لكن من دون أن تكتمل باللقاء.
نتهم ضيق الوقت مرارًا ونلوم مزاجنا مرات. ويقينًا، جميعنا لدينا الوقت لذلك عندما نريد فعلًا، وبالعكس في كثير من المرات لدينا متسع من الوقت ولكن ينقصنا فقط حسن إدارته وترتيب أولوياتنا ورغبة حقيقية وجدية في اللقاء.
لقاءات كهذه قد تبعد عنا شبح روتين أيامنا المكررة و الوقت الرتيب الممل.

بعد تقارب وألفة ولدت بيني وبين شاديا، كنا ننتظر لقاءً يجمعنا في جو من الود والفرح والضحكات.
فكثيرًا ما يطغى على حديثنا الجو الجدي والحديث الهادف والنقاشات الاكاديمية في مواضيع علم الاجتماع والمرأة، والتخلف والقهر، وهي مواضيع من صميم حياتنا في مجتمعاتنا هذه، بالإضافة لما من دراستي الجامعية في علم الاجتماع من تأثير، كما وجودها في مركز ثقافي وكونها ناشطة إجتماعية في هذا المجال.
وأخيرًا غنمنا هذا اللقاء عندما دعتني إلى عرس أحد قريباتها، ليكون مناسبة للمتعة والضحك والرقص، ولكن تعود نقاشاتنا و هواجسنا للحضور حتى في أجواء الزفاف هذا.
جلسنا سويًا، (والشيطان ثالثنا) كما كنا نقول مزاحًا: نقيّم أزياء الحضور وخاصة النساء، نطلق ألقابًا على هذه وتلك، نسترق السمع أحيانًا لأحاديث الحضور مع العروسين، نشاهد ونسمع ونقهقه.

- تقول شاديا: إسمعي إسمعي كم من الإطراء والمجاملات وكلام الحب بين أم العروس وأم العريس. في الواقع بينهما من الكره والغيرة الكثير، إحداهما تسمي الأخرى "الحية" والأخيرة تنعتها ب "أم سبع شفرات"، كناية عن لسانها وكلامها المؤذي.

- أعرف الكثير من هذه النماذج.

- انظري إلى تلك الشابة التي تتمايل، تلاحظين أمها في الجهة المقابلة، كثيرًا ما تشير إليها بحركاتٍ توجهها لتلفت نظر من على تلك الطاولة.

- تعنين من ترتدي الفستان باللون الليلكي؟ يشبه إلى حد ما فستان إحدى المدعوات. يا لها من مصيبة، تشابه أزياء فتاتين في حفلٍ كهذا!

- وفي ذاك الركن من الصالة، مجموعة من المدعوين، رجال أعمال وساسة، حيثما حلوا تبدأ الصفقات .

ثم هل تعلمين أن العروس هذه لا تزف إلى هذا العريس؟

- ماذا إذًا، أي عرسٍ هذا؟

- "في هذه الفئة من المجتمع، الفئة فاحشة الثراء، الفئة ذات الامتياز، لا تزف العروس غالبًا إلى قرين تتعاطف معه وتنسجم، بل إلى رصيد مالي أو عقار أو لقب. تلك هي أهم مواصفات شريك حياتها المختار.

الحقيقة أنها لا تختار إنسانًا، ولا تزف إلى شريك، بل تقترن بقيمة مادية أو اجتماعية.

- تقصدين أن الأسرة لن تقبل أن تمس مصالحها أو جاهها أو ثروتها من خلال اختيار تقوم به البنت ولا يخدم مصلحة العائلة والثروة.

هامش الحرية المعطاة لها ضئيل جدًا، لها الحق في التصرف كما تشاء، ولها أن تشتهى ما تشاء من دون المس بهذا الجاه. فإذا تمردت عليه؛ فليس

من المستبعد أن تسجن حريتها فعليًا. إن قيمتها الإنسانية الحقيقية و حياتها العاطفية؛ لا حساب لهما في كثير من المرات."

- تمامًا، تستكمل شاديا:

لم أخبرك الكثير عن زواجي أنا، تعلمين أن والدي كان أيضًا من فاحشي الثراء. أحد الشخصيات السياسية والنافذة إجتماعيًا، وعضو بارز جدًا في قيادات الصف الأول الحزبية.

أراد أن يضم ثروته ونفوذه إلى ثروة الصهر ونفوذه، أعني من كان زوجي.

" كنت أداة احتكار الامتيازات والاحتفاظ بها ضمن أسرة متفاوتة في عرضها.

ولا أخفي عليك كم تعرضت للويل لأني أردت أن أشذ عن هذا الدور، حوصرت من كل صوب بالترغيب والترهيب. ووسمت بالعقوق وجحود النعمة، حتى إلى ما يشبه النبذ. وفي النهاية رضخت لذلك، بغض النظر عما آلت اليه الامور لاحقًا.

- أقول: شاديا أنت امرأة تحتل مكانة رفيعة الشأن. أولًا تجاه ذاتك وكذلك في المجتمع وتحظى بكل التسهيلات الحياتية.

هل كان زواجك زواج جاه ومال وامتيازات أيضًا؟

وهل كان زوجك هو الذكر المتسلط على شخصية المرأة فيك، لقاء تقديمات مادية تحظين بها؟

- تنظر شاديا تجاه العروس، وتخفض صوتها تحدثني: هو كذلك.

كنت كما عروسنا الجميلة الثرية هذه، نتحول الى ما يشبه الأثاث الثمين في المنزل، تُستبدل ذات الإنسانة المرأة لتصبح ما يشبه أداة ثمينة يقتنيها زوجها، أداة كلفه الحصول عليها غاليًا. ولكنه يعتز بقدرته على ذلك ويتباهى، فالمردود دائمًا أكبر من التكلفة أو هو موازٍ لها على أقل تقدير.

فهو على أيّ حال، ربما لم يتزوج امرأة إنسانة بل أسطورة جمال أو جاه أو مال.

يحضرني قول ل نوال السعداوي، علمًا أني على يقين أن لديها الكثير من "الشطحات"

"إن إفراغ المرأة من مسؤوليتها، إفراغ لشخصيتها من لب الإنسان وجوهره وتميّزه عن سائر المخلوقات. بهذا الإفراغ لم يعد للمرأة إلا قشرتها الخارجية، الظاهرة أمام الأعين، لم يعد للمرأة إلا غلافها الجسدي الخارجي. ويؤكد لها المجتمع من حولها هذه الحقيقة. فالصحف والمجلات حين تخاطب المرأة، تخاطبها كطبقة من الجلد تحتاج إلى تدليك بأنواع خاصة من الكريم، وكرموش تحتاج إلى تقوية وتغذية، وك شفاه تحتاج إلى طلاء بلون الورد، وكشعر يحتاج إلى صبغات تتناسب مع لون الفستان."

هو مفهوم المرأة القناع:

قرأت عن ذلك... ونظرًا لفراغ حياتها، وفراغ شخصيتها من كل محتوى يحدد قيمتها ويحقق لها ذاتها.

'فإنها تسرف في وظيفة القناع هذه وبمقدار خوائها الداخلي وموت عواطفها. تهرب إلى الأمام، إلى التمسك بالمظاهر. وهكذا تنطلق في سباق محموم مع بقية النساء الأقنعة؛ فتصبح قضيتها الوحيدة هي الظهور، كأسلوب للوجود. وتتحول إلى قشرة خارجية، إلى أداة إعلان عن كل مستجد من السلع واللباس والأثاث.

تكمل شاديا،

بعد الزواج تقوم المرأة في مجتمع فاحش الثراء بدور هام جدًا، تكاد حياتها تقتصر عليه وهو تحديدًا استعراض جاه الأسرتين وثروتهما. إنها بكل بساطة أداة دعاية لزوجها ووالدها، من خلال استعراض ما أنفقت. مقدار ما أسرفت في الإنفاق . دورها أن تتبارى فى الدعاية، فى سوق الوجاهة؛ المسمى حفلات ومناسبات اجتماعية وعائلية مع وكيلات الدعاية الأخريات، زوجات وبنات بقية الأسر. تعتز بمقدار ما أنفقت، وما تخطط

لإنفاقه. وبالمقابل فإن أسرتها بحاجة لتكليفها بهذه الوظيفة التي تكاد تصبح النشاط الوحيد القادرة على النجاح فيه؛ والمجال الوحيد كي تحقق ذاتها من خلاله. هذه المرأة، أداة الجاه. ووسيلة الإعلان عنه.

وتختم شاديا:

وهكذا فإذا أفلتت المرأة في هذه الفئة من القهر المادي فإنها ستعيش أسيرة قهر قد يكون أمرّ وأدهى، وهو الاستلاب المعنوي لكيانها الذي لا يقل عن كونه موتا نفسيًا.

والضجر هو أبرز ملامح هذا الموت الناتج عن انعدام الالتزام بقضية إنسانية تمد الوجود بدفقة الحيوية والأمل، وتجعل للحياة طعمًا ومعنى . إن الضجر والسأم هما آفة هذا الاستلاب وأبرز أعراضه. وأكثر المؤشرات دلالة على القحط الداخلي.

ولا تجد المرأة علاجًا له إلا الإسراف في مزيد من الاستلاب ومزيد من الظواهر والاستهلاك" .

والآن، دعينا من هذا، يبدو أننا دائمًا، أنا وأنت، مهووستان بأفكار وهواجس كهذه.

دعينا نستمتع بأجواء العرس والفرح والضيافة الفاخرة الآن، ما رأيك أن نرقص حتى.

ونستمتع بالطعام والحلويات، لماذا نحن معشر النساء نعيش دومًا في هاجس الحميات الغذائية والصورة النمطية "للمرأة السلعة"، التى لا تكتمل صورتها الا بمدى قربها من "باربي"، الدمية.

والآن إلى الطعام والحلويات والرقص، ولا ننسَ نصيبنا من الفكاهة التي سنجدها أو نختلقها في الحضور والمدعوين.

15

كانت قد تكررت لقاءاتي بشاديا وتراكمت الثقة فيما بيننا. وكنت قد أطلعتها على شيء من علاقتي ب"نوح" واحتفظت لنفسي بكثير من التفاصيل عنه وعن غيره وعن إثمي الذي يرهقني.

حرصنا على المحادثات الهاتفية كما اللقاء معًا بين الفينة والأخرى.

وبعد أن بدأ الصيف وحره قررنا أن نتوجه من بيروت إلى جونية في رحلة ترفيهية، تخفف عنا شدة أيام تستهلكنا.

هي مدينة شمال بيروت، عروس الشاطىء اللبناني، حيث المناظر الطبيعية الخلابة و اللوحات الحجرية التي تنتشر في جنباتها، والتي تحمل نقوشًا تذكارية للغزاة الذين عبروا المنطقة على مر القرون. كما مركز المدينة القديمة وسوقها التراثي، بالإضافة لسوق الذوق وسوق مصبح وليس بعيدا الكسليك، كلها من أماكن الجذب ومرتع للفرح واللهو والترويح عن النفس بهدف تحقيق التوازن، وتجديد النشاط والهمة و إدخال السرور على النفس والتخلص من المشقة والإجهاد.

إضافة لغنى جونيه بالمنتجعات الصيفية الخاصة، وعلى طول الطريق البحري بها تنتشر المطاعم، والنوادي الليلية التي تقدم كافة النشاطات الترفيهية من كافة الألوان. وقد يكون من أهمها تلفريك حريصا الممتد من الشاطئ حيث المياه الفيروزية وتمادي الشاطئ بالجبل ليصنعا لوحة جمالية أخاذة بخلفية جبلية رائعة المكسوة بالخضرة ومنظر طبيعي رائع يزينه هواة يقفزون بمناطيد وطائرات شراعية كما التلفريك الذي يصل الشاطئ بالجبل ليصل إلى مزار سيدة لبنان في حريصا.

- هل سنزور مغارة جعيتا؟ أقول لشاديا.
- إن كنت ترغبين بالتأكيد سنذهب.
- هي ذات جمال فريد. معلمًا مهمًا في المدينة بمغارتيها العلوية والسفلية، وبالتشكيلات المكونة من صواعد ونوازل على أحجام ضخمة تكونت عبر ملايين السنين. مهندسها الأساس هو الماء.

اقهقه قائلة: نذهب ل جعيتا أو إلى كازينو لبنان، حيث اعتاد "نوح" التردد إليه، وقد يكون أول وأكبر مركز ترفيهي في الشرق الأوسط.

- دائمًا ما يحضر "نوح" في أحاديثك. ماذا دهاك؟

- نعم، تتكرر لقاءاتي به التى تسكنني، يختلف تواترها، بحسب ما يملي عليه عمله وما يسمح به وقتي، وإن كنت أملك من وقت الفراغ الكثير، بالإضافة لما لدي من قدرة على التحكم بالوقت وتنظيمه بحيث أترك سعة وافرة منه حسب ترتيب أولوياتي.

مع "نوح" كنت أتمنع عنه وعن لقائه أحيانًا وأنا راغبة، عملًا بمبدئي مع الرجال: أن يبقى هو ما بين الخوف من الفقد، فقداني وابتعادي عنه واهماله، والرجاء بكوني منجذبة اليه، وأني تحت سطوة رجولته وسحره.
وأعتمد معه "التنويم بالعسل" تيمنًا بالتنويم المغناطيسي، فأغدق عليه بعسلٍ وغنجٍ وحبٍ واهتمامٍ بما يجعله يهيم فيَّ وبعالمي وبأنوثتي التي تتجلى روحيًا وجسديًا، وذلك كلما انتبهت وشعرت به يبتعد إلى "كهف الرجل"، رغم عدم قدرتي على إدراك وفهم تفاصيل هذه النظرية واكتشاف مراحلها الزمنية.

العلاقات من الأمور المربكة بالنسبة للرجل، لأنه بفطرته يحتاج للاستقلالية. إن لم يحصل على المساحة ليبتعد، سيصبح أكثر غضبًا وسلبيةً.
وملاحقة المرأة له تضر بالعلاقة عمومًا، وتشعر بها تمس كرامتها في نواح شتى.

أبتسم ثم أقهقه، وأتوجه إلى شاديا مجددًا: يقول الرجال أن عقل المرأة ومزاجها عسيران على الفهم. نحن أبناء حواء واضحات جدًا وبسيطات جدا مقارنة بمزاج الرجل وعقده واضطراباته النفسية وخاصة عندنا تقترب الأمور من ذكوريته والمس بها.

- تقول شاديا: ربما هو هذا الصراع بين أفكار وخواطر وعقلية كل جنس مع نفسه و تجاه الجنس الآخر أيضًا.

لا أشك قيد أنملة أن الرجال ينظرون إلينا وإلى أنفسهم بما يشبه هذا الرأي. بمعنى أنهم أبناء آدم واضحون وبسيطون نسبيًا مقارنة بمزاج النساء واضطراباتهن الهرمونية، وبأنهم يكفيهم القليل من الامتنان والتقدير والثقة والتشجيع والشعور بالقبول، وكف النساء عن الرغبة في تغييرهم بما تظنن أنه واجب التعديل.

عل كلٍ عزيزتي "مونيكا"، أظنك وقعت في فخ الرجل مجددًا؟ وأخص بالذكر نوح أو أنك تجدين مصلحة ما معه؟

- أبتسم وفي عينيّ شرود ما: ما رأيك هل كل العلاقات الانسانية تحكمها المنفعة كما يقولون؟ والمنفعة تختلف عن المصلحة طبعًا، وما رأيك بالحب، بالزواج وبالعلاقات.

الحب، من المفاهيم التي كلما تعمقت بها كثرت الفلسفة حولها وازدادت غموضًا. وكل ما قيل وكتب عنه يبقى قاصرًا عن فهمه وإدراك كنهه.

كالشمس هو الحب، نكتفي بدفء حرارتها ونتنعم بنورها، هذا جل ما يمكننا معرفته، من دون البحث في ذاتها وكينونتها.

- تتكلمين كعاشقة يا صديقتي، أشعر أن حديثك نابض بمشاعر لكن ذلك لا يكفي لتكون العلاقة بين طرفين جيدة وصحيحة.

كما أظن يا صديقتي أن الرجال مختلفون عنا يقينا؛ نحن معشر النساء نفكر بقلوبنا، هم ليسوا كذلك دائمًا.

- أنت مخطئة تمامًا يا شاديا ، فنحن والرجال من طينة واحدة كل منا يمتلك قلبًا، وكل منا يبحث عن شريك يناسبه، فلكل إنسان حاجات وإن كانت متفاوتة بين شخص وآخر .

هناك من يحب دون مقابل ويُفني نفسه ويقدم كل ما لديه في سبيل عشقه، وهناك من يحب دون أن يَطغى الحب على نرجسيته التي تظل غالبة وظاهرة، يريد ثمنا لكل شيء، وذاته قبل كل شيء، حتى ليمكنه ببساطة وسهولة أن يدوس على مشاعره ويمضي .

كلانا، المرأه والرجل، نتشارك ذلك، لكن الاختلاف بطبيعة فطرتنا.

ومن جهة أخرى؛ نحن النساء ننظر إلى أنفسنا، كجسد ووجه حسن، نسعى دوما للعنايه بذواتنا وإسرافنا في تقديس الجمال واستهلاك وقت غير قليل لإبرازه، لعلمنا أن ذاك أول ما يلفت الرجل فينا .

وذلك جلي من قِدم الزمن إلى زماننا هذا ، حيث لم نوفر وسيلة تخدم هذه المصلحة الا وقدمناها قربانا له ، من مساحيق تجميل وحلي وثياب تظهر مفاتننا بشكل أوضح، إلى عمليات تجميل مبالغ بها في وقتنا الحاضر وصولًا للتكنولوجيا الحديثة في تجميل الصور، وتشهد أنستغرام على ذلك.

المهم أن نظهر بأبهى صورة ربما تجاه أنفسنا أولًا، ولكن يقينا في عين الرجل أيضًا، بغض النظر إن اعترفنا بذلك علنًا أو لم نعترف، وبغض النظر إن أبدينا تفاعلًا مع هذا الرجل أو لا.

في كينونتنا وأعماقنا انجذاب إلى تجميل أنفسنا ربما أكثر من انجذاب الرجل نفسه إلى جمالنا. و مهما حاولنا الدخول في عوالم مختلفة: من علم إلى عمل وسعي لنيل أعلى درجات الإبداع والإتقان حتى وصولًا إلى الإختراعات والسفر إلى الفضاء؛ لا نستطيع الخروج من قوقعتنا هذه. هي كدرع سلحفاة تمامًا، من دونها نضعف، نتعرى، نخرج من إطار أنوثتنا وإثبات جنسنا.

ذاك الضعف والسطحية المقيتة في جانبٍ منا، تدفعنا أحيانًا لننافس الرجل في مجالات شتى. وإثبات أننا لسنا جسدًا وجمالًا فقط، بل فكر وشخصية وروح.

أما الرجل فعالق بدوامة اسمها "فهم النساء واصطيادها" ، تريه يبحث دائمًا عما يردن وكيف السبيل لارضائهن.

إن رؤية الأمور كلغز يكفي لعدم العثور على الجواب رغم تفاهته.

لو تعاملوا ببساطة وتماشوا مع مزاجيتنا قليلًا لكان الأمر أسهل بكثير.

متطلباتنا ربما بسيطة: شعور بالأمان والقليل من الحب.

عدم الخوف من أي شيء وأنتِ في أحضان رجل: هو الحب بذاته.

- تقول شاديا: كل ذلك صحيح لكن السؤال الأصعب دائمًا كيف يمكن معرفة ما يريد الرجل؟ خصوصا أن أكثر العلاقات تنتهي

بعد مدة من الحب، كيف يمكن الحفاظ على وصله و قربه وعدم دفن المشاعر وتكفينها بالوقت ؟

- أن تحب بصدق فقط ، وتبقين مسافة أمان بينك وبينه، استخدام أنوثتك وإغرائك جيدًا لكن بذكاء لا بشكل مبتذل، إشباعه بالثقة الدائمة، برجولته، بصحة قرارته، وأنه الأهم على هذه الأرض على الأقل بالنسبة لك، كما الكف عن محاولة تغيره.

(وبضحكة من تذكر أمرًا)

وعليك دائمًا أن تكوني ممتنة لوجوده.

-ما بك ربما تذكرت شيئا؟!

- نعم "نوح" مجددًا.

- فيما يتعلق ب"نوح": ألا تشعرين أنك تسيرين بطريقٍ خطأ ، وستنتهي قصتك معه على وسادة تغرقينها بالدموع إن لم نقل أسوأ من ذلك بكثير وصولًا إلى جريمة الشرف ربما.

- لا أدري بخصوص النهاية، الآن مستمتعة جدًا بالبداية وسحرها لا أرغب حتمًا بنفث سم الواقع فيها، أريدها أن تحيا، ربما يُكتب لها البقاء بضع سنين وأمنيتي أن تبقى ما بقي العمر.

- غريب أمرك ما الملفت به إلى هذه الدرجة، وكيف تعلقتِ به إلى ذلك الحد ، علامات استفهام كثيرة في مخيلتي حول ذلك الرجل يكفي انجذابك اليه رغم وجود رجال كثر حولك.

- "نوح"... لعلني وقعت في فخه بغض النظر إن كان قد نصبه بإصرار وترصد ، أو دخلته أنا طوعًا ولذه .

فيه فيض من رجولة يغطي سيئاته كلها، قد رمم ثقتي بنفسي، أخال عينيه تتحدث الي دائمًا، تحدثني عن جمالي وترتجل شعرًا ما خبرته قط.

أذوب بقدرته على فهمي، يدرك مقصودي ورغبتي بنظرة، بكلمة. يصيب حاجتي قبل البوح بها، يباغتني دائمًا بذلك.

دقيق بكل الامور المتعلقة بي، يفهمني بطريقة مريحة جدًا، لست مضطرةً لتبرير أو جدال، وكثيرًا ما يكون حاسمًا بكلمة رحيمة تناسب ما أريده تمامًا .

رجولي إلى أبعد حد، عندما تنظرين اليه، ترين فيه ذلك الوجه العبوس، الكثير من الهيبة. له حضور ملفت ومؤثر أين ما حضر، عندما يقول شيئًا، فهو ما سيحصل لو كلفه ذلك توقف نبضات قلبه.

- لا أعلم عنك أنك تميلين إلى الرجل الجدي لهذه الدرجة أو أنك تحبين الجدية في الحياة.
- ظاهره كذلك، ولكن قلبه شيءً آخر، وهو معي رجل مختلف تمامًا عما يظهره للجميع .

أذكر محادثة هاتفية له، يطرد أحدهم من عمله ويقول له بكل لؤم:

في العمل لا مجال للتهاون، الخطأ ممنوع، الخطأ الأول هو الأخير، لا يجدي نفعًا أي توسل، أو وعود أَراها فارغة. اليوم هو يومك الأخير، لا يُسمح لك حتى باستكمال العمل حتى نهاية اليوم. إذهب لقسم المحاسبة، إستلم كامل حقوقك المادية وغادر من دون عودة نهائيًا.

العمل أهم من أمك وأبي. ينهي الاتصال من دون أن يكمل الطرف الآخر حديثه.

ويستكمل باتصال آخر أخاله للمحاسب: يخبره بضرورة إنجاز كل ما يتعلق بالحقوق المادية للعامل الذي طرده خلال أقل من ساعة. وينهي اتصاله.

أمتعض لسماع ذاك الحزم والشدة في نبرته، ويخيل إلي المحاسب يرغب بقول: أي عامل، أهو عامل عادي أو ذو مهام أعلى وأهم. كيف يمكنني إنجاز كل ذلك بأقل من ساعة؟

وما إن ينهي محادثته حتى يغير تلك النبرة الحاسمة والقاسية، والوجه المتجهم. يطبع قبلة على خدي هي أقرب إلى زاوية فمي، ويتغزل باطلالتي وكأنه شخص آخر، خبير بفصل الأمور وإعطاء كل شيء حقه.

ومن بين ما يتميز به "نوح" وخَبِرته أنا بنفسي، وبعيدًا عن التسلط والقوة والحزن. هو حنون محب كريم، يمد يد المساعدة للكثيرين ممن حوله، لا يبخل بذلك أبدًا.

أذكر "نادين" تلك الشابة التي أصيبت بسرطان دم، أم لطفلين صغيرين، عانت ما يزيد عن سنة ونيف من آلام جسدية وروحية جمة، نتاج ذاك الداء الخبيث التي فتك بها، لم يبخل بالمساهمة في مبلغ مهم لإجراء عملية زرع النقي في بلد يموت فيه المريض ألف مرة على أبواب بعض المستشفيات من دون أن يجد دواء ورعاية صحية يستطب بها، على نفقة الدولة. بينما تنعم فئةُ عليّة القوم بما يزيد عن حاجاتهم.
عانت نادين أشهرًا وأسابيعًا عدة ، وعانت معها والدتها التي سهرت على كرسي مستشفى، ليالٍ طوالٍ من دون كلل أو ملل، تنعم بابتسامة من نادين، أو بخبرٍ عن فحص مخبري أو شعاعيٍ يعطي أملًا بالشفاء.
عانت نادين ما يزيد عن مئات الأيام، وعانى معها زوجها وأخلص لكل تلك الأوقات والعهود التي كانت بينهم.
عانت نادين، وعانى وسيعاني معها، ما يزيد عن آلاف الساعات والأيام، ذلك الطفلين اللذين تركتهما من دون أم يأويان إليها...
عانى كل من عانى، وماتت نادين...

"نوح"، نعم إنه انسان بكل ما لهذه الكلمة من معنى ، يكفي تسخيره لكل مكانته لمساعدة من يحتاج ، وغير خاف كرمه على جميع من حوله .
(تتامل الورود المزروعه على حافة الطريق وتكمل حديثها عنه بعيون متلألأة):
أتعلمين! ربما تعلقي به لهذه الدرجة لأني وجدت فيه شيئًا من أمي التي حرمت منها، نعم! لمسات أمي عطف أمي وحنانها، شعرت بالأمان المطلق معه.
تعرفين تمامًا كيف تقدم الأم روحها للدفاع عن ابنها وأحيانًا بشراسة، إني أجد ذاك فيه.
يخاف عليّ من نظرة مارٍ على طريق، كثيرًا ما ينهرني عندما تبدو ملابسي أقل احتشامًا. يعجبني تملكه لي، يعاملني كأني شيء خاص به وحده.

أضيفي إلى ذلك: هو متحدث لبق، ومستمع جيد، يتقن فن الاستماع لامرأة ربما جل ما ترغب به هو أذن تسمع، لأن بها رغبة دائمة بالبوح بمكنوناتها ومشاكلها، لا لرغبة بإيجاد حل، أو الفوز بنصيحة، ولكن هي صفة ربما من ذات تكوين المرأة.

أموت حبا به حين يتركني أتحدث ببلاهة ويستمع إلي بكل تمعن. حتى ما يبدو حديثًا تافهًا: كفستان أعجبني بمتجر أو فتاة غبية لم تتقن تنسيق ملابسها، أو قصة رواية اقرؤها رغم عدم اكتراثه بالكتب.

يهتم بالتفاصيل، سواء بمتابعة الحديث، أو بترجمة جزء منه على الواقع، يسبر ما بين السطور، وخاصة أننا معشر النساء كثيرًا ما نعتمد التلميح وإرسال الرسائل بديلًا عن النطق بوضوح وصراحة عن حاجاتنا، عكس الرجل الذي يرغب بسماع الأمور أو الشكوى بشكل صريح وجلي.

نعتقد نحن النساء أن على الرجل فهم مبتغانا لأن ما بين سطورنا جلي واضح، وهنا تكمن جزء من معضلة اللغة المشتركة بين الشريكين.

انا حقا أحتاجه.

- "مونيكا" لا أريد حقا إزعاجك ، لكن أجدك مع "نوح" تغرقين أكثر، وكأنك نسيتِ أنك متزوجة؟

- لم أنسَ ذلك يوما إنه قيد يعذبني، ويظهر في تصرفاتي وحذري.

أذكر مرة عندما ركنت سيارتي في الموقف المخصص للسيارات في الطوابق ما تحت السفلية من "المول"، توجهت لتسوق ما لا أحتاجه، عائدة بكيس أحمله بيدي، واضعة إياه في صندوق سيارة "نوح" المركونة بالقرب من سيارتي، سيارة رباعية الدفع fj cruiser, داكنة النوافذ حتى الأمامية منها، وقد وضع ملصقا على الزجاج الخلفي: Guns In Board، مشابها لمقولة Baby In Board، وشتان ما بينهما.

أصعد بالقرب منه في المقعد المجاور للسائق حيث يجلس هو، ومرات أخرى في المقعد الخلفي رغم خلاء الامامي، وذلك حرصًا على التخفي وعدم افتضاح أمري.

كل هذا من باب التمويه والحذر والخوف والقناعة الكامنة بالخطأ، فلا يصح لامرأة متزوجة أن تشارك رجلًا متزوجًا أيضًا سيارته بظل هذه العلاقة فكيف بأكثر من ذلك، وربما هذه هواجسنا ليقيننا أننا في وضع وتصرف مشبوه، مهما حاولنا أن ننكر ذلك.
كما أشعر دومًا بتأنيب الضمير خصوصًا تجاه ابني وتأثير ذلك عليه.
أشعر أني فشلت في امتحان الأمومة، لم أكن تلك الأم الواجب أن أكونها.

لكن أريد التمرد على واقعي وكسر القيود، أريد أن أحيا كإنسانة لها كيانها المستقل الحر، غير المكبلة بزواج على ورق.
أريد أن أنتقم من زوجي، تركني وحيدة مع كل هذه المسؤوليات الملقاة على عاتقي؛ أنتقم حتى من عائلتي التي خذلتني عندما كنت بحاجتها.
وربما أخيرًا أو أولًا، أريد أن أنتقم من نفسي.
أشعر بحقد على الجميع وعلى المجتمع، لا يشغلني إلا أن اكون قوية ومستقلة.
تعرفين الفرق بين "مراد" و"نوح": أنهما كالماء والنار تمامًا.
"نوح" يحييني، أما "مراد" نار أحرقتني، بالهجر وإن كان بحجة ضمان حياة مرفهة وضمان المستقبل، نار أحرقتني وتحرقني بما أنا عليه الآن من إثم.
لا أعلم يقينا ما أكنه ل"نوح": هو حب أو حاجة إليه، أو حتى اعتياد، أو وسيلة انتقام.
لا أستطيع الابتعاد عنه رغم عواقب قربه ورغم ما ينتابني دومًا من مشاعر سلبية وشعور بالإثم عندما أفكر بعلاقتنا.

ما بين الألم والمتعة تناوبت مشاعري طيلة أحاديثنا فيما بيننا، ومشوار الاستجمام هذا. وصولًا إلى ليلي الطويل بعد أن لجأت لوسادتي أحتضنها وأبثها سريرتي، ودمعي..
هل قدر المرأة أن تتمرد وتتمرد من جديد؟ على نفسها على واقعها، وعلى الحب ، وعلى الرجل؟

فيما يتعلق بي أنا، لا بد من تطوير مواهبي وقدراتي، وهي كثيرة، يسعفني أيضًا تحصيلي الجامعي، وثقافتي التي اكتسبتها بالعمل والمتابعة والتجربة والخطأ.
لا بد من أن أستفيد من كل ذلك ومن الإمكانات المتوفرة والموجودة، في سبيل إعادة بناء نفسي والسعي للابتكار والابداع. أعلم أني بالغت في اظهار أنوثتي وجمالي وصولًا للإغواء والخيانة الزوجية، هو عنف مارسته تجاه نفسي أولًا وتجاه زوجي وعائلتي ثانيًا وربما أكثر من ذلك أيضًا.

"ما أردته لنفسي ليس الذي حدث لي بالفعل، ولكني غيرت خططي ألف مرة لأفرح، وألف مرة لأتحمل، وألف مرة لأعيش.*

أنانية أنا، ورغبة عمياء في الانتقام تسكنني، وحقد على كل ما يحيط بي ابتداءً بنفسي وليس انتهاءً بالبلد الذي أعيش به.
وفهم، ربما خاطئ لمعنى القوة، أؤمن به .
أخاف من الوحدة، وكثيرًا ما أشعر بها رغم كل هذا الازدحام، أشعر بالغربة وأنا نظريًا في وطني وبين أقاربي، غربة مع نفسي تجتاحني.
أخشى أن يغدر بي الزمان أكثر مما غدر...
الكثير من العتم يحيط بي، وحتى المستقبل أراه كذلك، أفتقد ذاك الضوء في الأفق الذي يعطيني الأمل، أشعر بعدم الراحة وعدم الاستقرار، لا أمان لدي...

*الإقتباس ل كافكا.

غريقة أنا في المكان واللا مكان، داخل نفسي وحولها، وفي واقعي، لا شاطئ أمان قريب مني أو على مرآي.

ربما أكثر ما أحتاجه اليوم، هو أن يكون عندي أم، أغمرها وأنام في حضنها. لا أشك للحظة أن وجودها كان قد جنبتي كل ما أنا فيه. بالمقابل يغمرني أيضًا شعورٌ بأني لم أكن الأم الأم التي يستحقها إبني.

نحتاج للأهل وخاصة الأم مهما بلغنا من قوة أو عمر. الأهل ثروة لا تعوض والأم أثمنها وأغلاها.

ويحضرني قول ل تولستوي، "إنها العائلة، إما أن تصنع إنسانًا، أو كومة عقد."

مجددًا، أنا وحيدة، فاقدة السيطرة على ما يحيط بي ويقيدني، أبحث عن شعاع ضوء ينير تلك العتمة، لألقي كل ما يثقل كاهلي خلفي.

أرغب بالصعود إلى جبل يعصمني، ولأصرخ...الصراخ ثم الصراخ.

والتحدث بصوت عالٍ عما أشعر به وما يدور في كنهي.

أحتاج الخطوة الأولى، "لقد جَنيت ذنبًا يُدنس الطهارة ويُخضب بالحياء وجَه العِفة، ذنبًا يَنزع الوردة من جبين الحب ويضع مكانها قَرحة، ذنبًا يعيد عهود الزواج مكذوبة كأقسام المقامرين، ويجعل العَقدَ فيها جسمًا بلا روح، ويجعل الدين لفظًا بلا معنى.

انظري إلى السماء، انظري كأن الساعة ساعة النشور، كأن الجحيم فيها ينشد الهلاك.".*

---

*من مسرحية هاملت لـ شكسبير

16

"بروكسل"

من المرة الأولى التى سوف تقوم فيها بزيارة بروكسل، سوف تقع في الحب معها مباشرة. المشاهد والأصوات والروائح، كل هذه الأشياء لديها قدرة خارقة على إشعال تلك المشاعر في كل زاوية بك. هذه المدينة لديها مزيج مثالي خاص من العديد من المكونات التي تحافظ على بقائها بالقرب من قلبك.

وصلت إلى المدينة صباحًا باكرًا، موفدة من إحدى دور النشر التى أعمل بها.

كثير من رحلات العمل هذه كان يرافقني فيها "مراد"، أشبه بموعد بيننا في ظل غيابه المتكرر الدائم، الذي تجاوزته حاليًا، ولم أتجاوز صراعات نفسي بين إثمي وضرورة أن أكون أكثر سواءً.

أعلمته بموعد سفري قبل مدة عندما كان في إجازة عمل في لبنان لمدة أسبوعين بعد شهور ثلاث كان قد قضاها في أفريقيا:

- سأسافر إلى بلجيكا قريبًا، أريد أن أعلمك بهذا.

- رحلة عمل كالعادة؟

- وكلت بمتابعة بعض الأمور المتعلقة بالدار ومتابعة بعض الترجمات والاصدارات.

- ربما سأرافقك أنا أيضًا، نحتاج إجازة جديدة معًا نعيد ما تداعى بيننا.

- لا أظنك تأتي، لن تستطيع ترك عملك مرتين في شهر واحد، موعد سفري أول آب القادم، أي بعد ثلاثة أسابيع تقريبًا.

- سأحاول سأحاول.

قال ذلك، وكنت وإياه نعلم علم اليقين أنه لن يفعل ذلك.

وصلت المدينة، كنت قد حجزت غرفة في فندق Best Western Royal Centre، الوقت لا يزال مبكرًا لاستلام الغرفة، تركت أغراضي الكثيرة نسبيًا في الفندق بقسم الأمانات.
أقف قبالة مرآة في البهو. يلازمني "نوح"، في مخيلتي.
أخاطب نفسي: أنيقة جدًا وجذابة، ناهيك عن جمال الروح وطيب العشرة...
تنورة ضيقة بلون بيج، وقميص أبيض بسيط بأزرار مفتوحة بالكاد تظهر المسافة أول النهدين، يزينه عقد ذهبي اللون طويل يتوسطه حجرين كريمين بلون بني قاتم، على جانبيها قطعتين ذهبيتين بحجم أصغر نسبيًا.
أكمام القميص تصل إلى أعلى المرفق بقليل. يشد وسطي حزام جلدي بني عريض، مشابه للون الحذاء الذي أنتعله، حذاء صيفي مفتوح ذو الكعب المتوسط، لا تزيد عن الخمس سنتيمترات.
وكانت مفاجأتي وصدمتي كبيرة، عند وصولي للمطار، عندما تقدم مني "محمود"، الشاب الذي يرافق نوح عادة، وقدم لي حقيبة يد متوسطة الحجم إلى كبيرة نسبيًا، مناسبة تمامًا لما ألبس، ماركة فندي Fendi، العالمية المميزة. مصنعة من جلد، مُبطنة بأقمشة عالية الجودة، وكلمة فندي محفورة على هذا القماش بأحرف كبيرة. وجدتها ثقيلة الوزن بعض الشيء ولكن من دون شك هي أكثر من مميزة.

وضعت فيه ما تضع كل أنثى بحقيبتها:
مستحضرات التجميل، علكة للحفاظ على نفَس منعش، قلم وكيس صغير مخصص للطوارئ والأشياء التي قد نحتاجها بشكل مفاجئ، مثل الفوط الصحية والأدوية المسكنة لألم الرأس أو البطن، إلى جانب لباس داخلي احتياطي.

يجب أن يخرج "نوح" من حياتي! أو لعلّي أجده هنا.

هو هاجس أو أمنية، أم عهدي بمفاجآته وشخصيته الغامضة. كعادته في محادثته الأخيرة كان مبهمًا وغامضًا، وأعتقد أن الحقيبة الهدية، هي قد تكون إشارة لقدومه أو تحضيره لشيء ما أجهله.

حملت حقيبة اليد خاصتي، أسير على طريق Rue Royale، حيث يقع الفندق، أستكشف المكان. إقتربت مما يشبه حديقة تتمادى مع الطريق، و بأجزاء من الثانية، نُشِلت الحقيبة من يدي،. كيف؟.. من فعل ذلك؟ لا أعلم.

توقفت مشدوهة دون حراك، ودون أن أنطق ببنت شفة، كم تمنيت أن يكون "نوح" معي، هو مصدر قوة وأمان واطمئنان لي.

ما كانت إلا بضع دقائق، وكأنه حلم، فعلًا "نوح" هنا وبقربي.

لا تقلقي، يسعدني أني أراك وأنك بخير، يقول ذلك ناظرًا إلى ساعته الذكية وينقر على زجاجتها، علمًا أني ما خبرته من محبي التكنولوجيا الحديثة وخاصة فيما يتعلق بالساعات.

ضممته بشدة، وفي ذهني خواطر وأفكار أقلبها، كأنه شاهد سرقة الحقيبة، لكن لا يمكن أن يكون رأى ذلك من دون أن يدافع عني.

مر الوقت سريعًا سويًا، كالعادة. وأعادني للخلف حيث كنت ما بين الرغبة والرهبة، رغبتي في "نوح" ورغبتي في الخروج منه.

أخبرته بما حدث حول سرقة الحقيبة، قال تجاوزي الموضوع. لك مني هدية أخرى أجمل وأكثر رونقًا وجمالًا، الآن لا بد من العودة للفندق، لاستلام غرفتك وأخذ قسطًا من الراحة، وبعدها يمكننا استكشاف كامل المدينة، وتناول طعام العشاء في أحد المطاعم الكثيرة المميزة.

عدنا أدراجنا باتجاه الفندق، لم أدْعه ليشاركني غرفتي، ولا هو عرض ذلك. إفترقنا في بهو الفندق، وبعد عدة خطوات كنا قد خطيناها، أنا باتجاه المصعد، وهو باتجاه باب الخروج، التفتُ للخلف وجدته يلتفت إليّ، تلتقي أعيننا بشغف أينما حللنا.

فيما بعد الظهر التقينا لاستكشاف المدينة، تجولنا في شوارعها يقودني "نوح" قائلًا : نذهب معًا باتجاه الميدان الكبير، واحد من أهم المناطق السياحية في مدينة بروكسل .
هو جوهرة العمارة القوطية حيث يبدو مهيبًا ببرجه الذي يمكن رؤيته من كافة أنحاء المدينة ليمثل الساحة الرئيسية في المدينة.
يقع في قلب هذه المدينة الآسرة. ويُعد واحد من أفضل الساحات المحفوظة في أوروبا.

- فأجيبه: اذًا دعنا نكتشف الهندسة المعمارية الفريدة. مميزة تلك المباني المُنتشرة حول الساحة بطرازها المُوحد. تعجبني الديكورات الذهبية ، والأعمال الحجرية المنحوتة بدقة عالية. كما أن المكان يتميز بألوانه المُبهجة مما يُتيح التقاط أجمل الصور.

- يقول نوح: تعجبينني أنت أكثر، كما أنك أكثر إبهاجًا لي من أي شيء آخر.

ينظر إلي "بغمزة"، ويشدني من خصري اليه.
اقتربي مني أكثر يا كحيلة العينين وأخبريني، أي سر أودع في عينيك، عندما أحدق بهما أشعر براحة تحثني على تنهيدة حياة..
هل تعرفين ما لون عينيك؟ ربما تسألين وكيف لا أعلم ذلك، لونهما الأخضر فريد، أراه منقطع النظير، تلك الغابات الخضراء في عينيك أتشرب من نهر العاصي؟ أسرقت شيءً من أشعة الشمس خبأته فيها، أم ما حكايتها؟ جميلة جدًا عيناك الخضراوتان ورموشك شديدة السواد، طريقتك في وضع الكحل تزيدها وضوحًا، تألقًا وجاذبية.

- أشعر بما يشبه رعشة في كياني، تكاد عينيّ ترقصان فرحًا وتتدللان بنظراتٍ، ثم يسرح ناظري في المكان وأقول:

جميلة الساحة الكبيرة وكأنها بسطت بسجاد، تمتلئ بأشكال وزخرفات مصنوعة من الزهور، تبقى كذلك في كل شهر آب. ويبدو أن العديد من المقاهي أيضًا تنتشر هنا بالجوار، دعنا نتذوق الأطعمة التقليدية لبروكسل، مثل المولي (بلح البحر) والبطاطس المقلية التي نشأت في بلجيكا وليس فرنسا.

وبعدها شوكولا البرالين، إن كنت في بلجيكا لا بد من تذوق الشوكولا، هذا ما عرفته مؤخرًا عن طعام بلجيكا.

تعرف الشوكولاتة البلجيكية بطعمها وجودتها التي لا تقاوم، وهي ذات شهرة عالمية، حتى أن للشوكولا متحف مهم وكبير هنا، يقصده الكثيرون، وربما يكون لنا موعدًا معه غدًا، سنذهب لرؤيته.

يقوم العديد من كبار صانعي الشوكولاتة في بروكسل ، بفتح أبوابهم للسائحين الذين يتطلعون إلى الاستمتاع بعروض صُنع الشوكولاتة خلال عُطلتهم. كما يُمكن للسائح تناول ما يحلو له، وأخذ عينات من الشوكولاتة طوال هذه الجولة المُمتعة.

استكملنا باقي اليوم سويًا بين تجوال في وسط المدينة ومشاهدة عازفي الموسيقى المنتشرين في أماكن الجذب السياحية.

عازفو موسيقى مبتدئون وحتى محترفون يعزفون للمارة الذين يقفون لمشاهدتهم مدة طويلة أو قصيرة وللاستمتاع بموسيقى وفن الشوارع، بعضهم ينسجم ويبقى لحضور هذا العرض، الآخر يعبر سريعًا، ومنهم من يصفق بحرارة وآخرون يتركون قطعًا نقدية معدنية للعازفين ، امتنانًا وشكرًا لما متّعوا به آذانهم.

كما تشاهد بعض التماثيل، البشرية، المنتشرة. مجسم ما، بأشكال ومواضيع مختلفة، لا تشك للحظة أنه منحوته، ثم لا تلبس أن تتحرك، لتتفاجئ أنها شخص حقيقي، إنسان، بصباغ ولباس فني يقف جامدًا من دون حراك متشبها بأحد التماثيل.

هي أيضًا مما تشاهده تحت عنوان الفن في الشوارع، وإن كان غاية مؤدّيه جمع بعض القطع النقدية.

التجوال ليلًا في هذه الأماكن السياحية، في قلب هذه المدينة النابضة، ذو رونق خاص، ومتعة لطيفة، يزيد من ذلك كله ، الحضور الآسر ل"نوح".
في اليوم التالي، كان عليّ إنهاء ومتابعة الكثير من الأمور المتعلقة بالعمل وبدار النشر، بالإضافة لغيرها من متابعاتي الشخصية.
أما فيما يتعلق ب"نوح" فقد قال أن لديه زيارة ضرورية لصديق في حي "مولنبيك" الشعبي.
في اليوم الثالث والأخير، أصر على ضرورة توجهنا لزيارة مدينة Bruge واستكشافها. وبالكاد تهربت من زيارة متحف السيارات، التي يعشقها "نوح"، وكذلك حديقة أوروبا المصغرة القريبة من "أتوميوم"، المَعلم الشهير ، والذي أصبح أشبه برمز لبروكسل، كما برج إيفل رمزا لباريس.
كان "أتوميوم" الجناح الرئيسي ورمز للمعرض الدولي إكسبو الثامن والخمسون الذي أقيم في عاصمة بلجيكا على موقع هيسل في بروكسل عام 1958. لم يكن القصد من أتوميوم البقاء إلى ما بعد المعرض، لكن نجاحة جعله منه معلمًا دائمًا ورمزًا عالميًا لمدينة بروكسل.

مدينة بروج Bruge، تجربة سياحية من نوع خاص.
تلك المدينة تُعد واحدة من أكثر المُدن البلجيكية المُحتفظة بنمط العصور الوسطى، وتتمتع بشهرة وشعبية سياحية واسعة.
وذلك بفضل ما تزخر به من مزيج ساحر من الهندسة المعمارية ، والفنون، والثقافة، والمتاحف، كما تشتهر بالشوكولاتة أيضًا، شأنها شأن بروكسل وبلجيكا عمومًا.
قنواتها المائية الجميلة، كما المنازل المنمقة المصطفة على جوانب تلك القنوات المتداخلة، حيث يمكن إستئجار القوارب للتنقل عبرها.
هي أشبه ب فينيسيا في ايطاليا.
المطاعم والفنادق الفاخرة، وبالتأكيد اماكن التسوق وغيرها الكثير من المقومات جعلت المدينة بأكملها مُدرجة ضمن قائمة اليونسكو.

- أنهينا رحلتنا السريعة في بروكسل، سنتوجه للمطار خلال ساعتين، يقول "نوح" .

- أنا جاهزة.

- جاهزة تقصدين بحاجة لما يقارب الساعة من التحضيرات.

- لا لا، أقل من ذلك بكثير.

أنتهيت من كل التحضيرات، التقينا في حرم المطار، نتهيأ للدخول، وقبيل البدء بإجراءات تسليم الحقائب والتفتيش والتوجه إلى موظفي الجمارك للتوجه للطائرة.

التفتُ إليه، أنظر اليه متفاجئة: يا الهي ، أي جمال في هذا العقد، وكأنه ماس حقيقي.

فاجأني بهدية، علبة خلابة وعقد من الماس بمنتهى الروعة. ألبسني إياه حول رقبتي وقبّلها، ثم غمرني يشمني ويقول كلامًا ناعمًا: إنه هديتي لك، شعرت بحزن انتابكِ عندما سرقت حقيبة يدك.

- أطرقت رأسي وقلت: حزنت فقط لأنها هديتك اليّ.

سارت الأمور على ما يرام ومن دون حوادث أو تفاصيل تذكر .

وعندما وصلنا إلى صالة الوصول، توجهنا لصالة VIP، نشرب كوبًا من الشوكولا " Hot Chocolate"، التي يعشقها "نوح".

توجه إلي قائلًا، أنصحك بخلع العقد الماسي، قد يظنه البعض ماسًا حقيقيًا، هو ليس كذلك ولكن كوني واثقة أنه من النوع المقلد بدقة عالية، وزنه يزيد عن الخمسة والأربعين قيراطًا.

ترين، مؤلف من عشرة فصوص، سعره يصل إلى ثمانمائة وخمسون ألف دولار. لو كان حقيقيًا فعلًا، يقول ضاحكًا.

- أنت على حق، لا بد من توخي الحذر دائمًا.

خلعت العقد ووضعته في علبته، وقلت له احتفظ به حتى عودتي من المرحاض، إنه ثروة، لأنه هدية منك، وهذا أهم من كونه ماسًا حقيقيًا أو مقلدًا.

قلت ذلك بغنج، وتابعت قائلة: سأذهب لأصلح مكياجي لن أتأخر

17

على باب المكتب الذي أقل ما يقال عنه أنه رئاسي، وهو لأحد السياسيين البارزين في البلد، المحسوب على واحد من الأحزاب الرئيسية الفاعلة.
كان يجلس تارة وأخرى يقف، وحينًا يتحرك بخطى طويلة وبطيئة في المكتب.
ينظر مرارًا إلى ساعته، المطعمة بسوار من الجلد، يكاثف عليها بخار تنفسه ثم يمسحه بقماش قميصه. وقد قيل أن هذا النمط من الساعات تدل على أن من يلبسها يتمتع بغموض كبير، ولا يثق في أحد.

يخاطبه مدير المكتب: تفضل بالدخول.
يدخل على مكتب رحب،
ثلاث نوافذ طولية وراء المكتب ذو السقف المرتفع، وستائر كستنائية.
لوحة مثيرة، غريبة عند النهاية الشمالية للغرفة. تحوي صورة لشخصية رئيسية ذات جناحين ضخمين، والتي تجلس تتفكر وتتأمل أمام مبنى حجري، محاطة بمجموعة غريبة من الأشياء التي لا يخطر على البال إجتماعها بتلك الصورة؛ وهي: "ميزان، كلب هزيل، أدوات نجارة، ساعة رملية، أشكال هندسية مختلفة، جرس معلّق، نصل، سلّم، وفي الخلفية نجد نقشا لمربع سحري في المبنى الموجود خلف الشخصية الجالسة تحت الجرس.
هي لوحة "ميلانكوليا" الغامضة. ل ألبرت دورر الألماني.
وبالعودة إلى غرفة المكتب ذات الشكل البيضاوي والتي تحتوي على أربعة أبواب:
باب شرقي غالبا مقفل، ومجهول ما يخفي وراءه،
باب غربي يؤدي إلى غرفة صغيرة خاصة للدراسة والعشاء؛
باب شمالي غربي يفتح على الممر الرئيسي،
وباب شمالي شرقي يفتح على مكتب سكرتير الرئيس.

أريكتين باللون البيج، بعيدتان نسبيًا عن المكتب وكرسي المسؤول، تتواجهان بمحاذاة طاولة قهوة مغطاة بالكتب.
وسجادة دائرية باللون البيج الفاتح تحيط بها حلقات من الخشب الصلب.
ويتربع خلفها المكتب المصنوع من الخشب الصلب، مواجهًا لشعار مبهم مطرز على السجادة.

- إحترامي معلم. يخاطب المسؤول.

- يشير إليه بالجلوس، أهلًا "نوح".

بعد كلام عام ومجاملات سطحية بسيطة لدقائق، يتوجه إليه ضاحكًا وفي جو من المزاح.
"شو يا زمك، خبروني عم تتمعشق وتكزدر ب بلجيكا".

- لا معلم، عمل.. إنجاز مهمة، وكل ما عدا ذلك هو من ضرورات العمل.

- كيف سار هذا العمل؟
- أولا بالنسبة للبضاعة، هي بضاعة جديدة وتحمل مستقبلًا في الحصول على ثروات طائلة.

" عقار LSD ثنائي إيثيل أميد حمض الليسرجيك عالميا بإسم "عقار الهلوسة", وله قصة غريبة حيث اكتشفه العالم (ألبرت هوفمان) عام 1943 صدفة حينما تسلل العقار إلى يديه نتيجة تجربة معملية، وبدأ على أثرها يشعر بالدوار والضجر ثم بدأت الأوهام تهاجمه، وشعر وكأنه مخمور، ولم يزل به أثر العقار حتى تلاشى بعد ساعتين.
مما دعا مكتشفه للإدمان عليه بنفسه وهو عقار شديد الحساسية والتركيز، إذ أن ثلث جرام منه يكفي لقتل فيل، لذلك يتم تخفيفه كثيرًا قبل إستخدامه من قبل مدمنيه.

هو مادة شديدة الخطورة حيث يشعر المتعاطي ببعض النشوة الزائفة، وتبدأ الصور الكاذبة، فيرى المتعاطي الأشياء على غير حجمها الحقيقي وشكلها المألوف، أيضًا يشعر بالهلوسات السمعية والبصرية والحسية، ويشعر بمشاعر كاذبة ليس لها علاقة بالأحداث من حوله، مثل الفرح والحزن والاكتئاب واليأس. وقد تؤدي بعض الحالات إلى الانتحار.

وهو أغلى ثمنا وأكثر فعالية من المخدرات المعروفة والمنتشرة، وذو أرباح خيالية يتفوق على مخدر الشبو: ميثامفيتامين.

ويُعرف بأسماء عدة أشهرها الثلج أو الكريستال ميث.

- جيد.

كيف أوصلته إلى حي مولنبيك؟

- وضعت البضاعة المغلفة بورق القصدير، في بطانة حقيبة نسائية كانت تحملها صديقة.

وعندما وصلت إلى بروكسل، وقد كانت تحت المراقبة، سرقها منها أحد رجالنا هناك.

لم أكن قد سمعت عن حي مولنبيك سابقًا، ولا حتى أثار إهتمامي من قبل.

لاحقًا علمت أنه حي سيء السمعة، هو على مرمى حجر من العاصمة البلجيكية بروكسل، لا يزال يمثل لدى كثيرين بؤرة للتطرف.

"مولنبيك" عانى منذ أكثر من عشرين عامًا من التهميش، بسبب إهمال السلطات في بلجيكا، وعدم توفير فرص العمل للشباب، ممن انزاحوا نحو التطرف، ويتحدر من "مولنبيك" عدد من المشاركين في الاعتداءات التي نفذت في باريس في تشرين الثاني/نوفمبر 2015 وأدت إلى مقتل مئة وثلاثين شخصًا.

بالإضافة لكثير من الأمور المشبوهة المنتشرة في الحي، مخدرات، تبييض أموال، وغيره.

وكأن لا بد من مكان خارج عن السيطرة، داخل في إهمال الدولة، حتى في الدول المتقدمة.

لا بد من وجود أحياء سكنية كهذه لتمرير العديد من التجاوزات، والمخالفات، واستكمال الصفقات المشبوهة، كما استمرار فكرة "البعبع والغول" إن صح التعبير التي لا بد منها والتي تشكل ضرورة ملحة لأي سلطة ولو ادعت الديمقراطية.

- جيد أنك أوصلت البضاعة إلى "مولنبيك" والمال؟.

- أدخلته البلد، بالإضافة لمبلغ آخر إضافي، كل ذلك عبر عقد من الألماس الحقيقي النقي .

يعود إلى مخيلته، عندما حصل على عقدي الألماس، الحقيقي والمزيف، الشبيهان تمامًا.
وتعرف على الألماس الحقيقي بينهما:
بوضع ماسة أصلية بجانب الماسات في العقد، وبالتتالي، يغطي كلاهما بالضباب الناتج عن الزفير.
هما متشابهتان تمامًا، تبقى الماسة الحقيقية نظيفة بعكس الماسة المزيفة.
إذا تنفست أمام الماسة المزيفة بشكل متكرر، سترى التكثيف على الماسة.
ومع زيادة التنفس، سيتكاثر الضباب أكثر وأكثر على الماسة، بينما تبقى الماسة الأصلية نظيفة واضحة.
هو عقد من أفضل أنواع الألماس البلجيكي، وأغلاها :
عشر قطع، كل منها بوزن خمسة قيراط، يزيد سعره عن سبعمائة ألف دولار.
سعر الماس يتم تحديده بمعادلة تجمع عنصرين مُهمين الأول اللون والثاني النقاء.

يكمل "نوح": جعلتها ترتدي العقد الحقيقي من المطار في بروكسل وصولًا للمطار هنا ، لتجنب الشبهة بنقل الأموال، وعند وصولنا إلى بر

الأمان هنا، وبحرفية عالية، أبدلت الذي بحوزتها بآخر مزيف كان ينتظرني به أحد رجالنا.

- جيد.

- غسيل أموال نظيف، يقول "نوح" مبتسمًا.

غسل الأموال و تبييض الأموال يلتقيان في دلالة مفهومهما. وهذا يعني استخدام حيل ووسائل وأساليب للتصرف في أموال مكتسبة بطرق غير مشروعة، وغير قانونية، لإضفاء الشرعية والقانونية عليها.
تتضمن الاستثمار في سلع متنقلة، مثل الأحجار الكريمة والذهب، التي يمكن نقلها بسهولة وذلك عبر الدول بطرق مختلفة، كما الإستثمار في أصول ذات قيمة وبيعها بشكل متحفظ مثل العقارات، القمار، التزوير، وإنشاء شركات وهمية.

- أترك لك الآن، العملية القادمة. لا أريد مفاجآت.
يمكنك الانصراف الآن. يختم المسؤول.

ما كاد "نوح" يغادر المكتب، حتى أسرع المسؤول بتناول هاتف خاص من أحد الأدراج، من نوع الثريا ليقول :

أنجزت المهمة معلم.(بفتح الالف أو ضمها).

18

اليدان خلف الظهر مكبلتان، العينان مغطيتان بحيث لا يتمكن المرء من رؤية شيء.
تم مصادرة كل شيء، الأوراق الثبوتية، الهاتف، جميع الحقائب والأغراض.
إنسان مجرد إلا من إرادته، وإن لم تنتصر هذه الإرادة وتصمد، فقد خُسرت المعركة.
في طريق الوصول إلى تلك الغرفة، غرفة التحقيق، مهانة واضحة وشدات نفسية بالإضافة لكل ما يدفع المرء للانهيار والانكسار.

القهر الروحي الذي يبدأ من اللحظة الاولى، فتضيع قيمة الإنسان أمام نفسه ويشعر أنه شيء مباح لا قيمة له ولا وزن، ثم الإهانة الفائقة التي تهز كيانه هزًا عنيفًا مزلزلًا.
في غرفة تكاد تكون خالية من الأثاث، إلا من طاولة ليست بالكبيرة و كرسي غير مريح مقابل كرسيين آخرين، على الجهة الجانبية ما يشبه نافذة كبيرة، لا تفتح أو تغلق، بل لوح قاتم اللون عبارة عن لوح زجاجي من دون أي تفاصيل وكأنه عدسة كاميرا عملاقة تسجل كل همزة ولمزة، إضافة لما يمكن مشاهدته من كاميرات مراقبة في المكان. ولا شك في وجود ميكروفون غير ظاهر في مكان ما على الطاولة.
ألوان رمادية قاتمة للغرفة مع انارة معلقة بالسقف، يكاد ينحصر ضوؤها فقط على الطاولة التي تحوي بضع وريقات.
يجلسا كل من جهة على الطاولة. هو، بقربه كرسي خاوٍ. وعلى الأرض حقيبة وبعض أغراض.
معركة من الجدل والمساومات، يستخدم فيها المحقق ما هو مباح وغير مباح، في المعارك من شراسة ومراوغة، وأساليب خداع، واستعمال لفنون الحرب النفسية.

الضغط بكل الوسائل، بالترغيب تارة وبالترهيب والتعذيب مرات، لفظيًا أو ما قد يصل إلى الجسدي أيضًا. كل ذلك للبوح بمعلومات.
ينتقل المحقق من سؤال إلى سؤال، ومن إجابة إلى أخرى لتوضيح الصورة أكثر. التحقيق لعبة ماكرة، مراوغة وخداع، وإيهام بمعرفة كل شيء.

- أعيدي عليّ مجددًا: ما اسمك؟ عملك؟ ما الغاية من زيارتك؟

- أجيب عن نفس الأسئلة هذه بنفس الأجوبة، ولعدة مرات.

- من أين أتيت بهذه البضاعة، من زودك بها؟
وإلى أين توصليها؟
من يعمل معك هنا ؟ وحتى هناك؟
سيل من الأسئلة وتليها الإجابة بشكل تفصيلي مكررة،
فَقدُ تركيز، وقوى خائرة..

أعلم أنك تعملين في دار نشر، ومن الطبيعي أن تحملي الهدايا معك، ولكن هذا في الظاهر، الحقيقة أنك على علاقة مع شبكة كبيرة منظمة ومحترفة وربما تتوزع نشاطاتكم في أماكن عدة من العالم.
وتستهدفون بلدنا بشكل متكرر.
ولكن فاتكم جميعًا أن قدراتنا وقدرات جهاز الأمن لدينا هائلة، وأن ذراعنا طويلة نصل إلى كل مكان، وأننا نعرف كل شيء، نمُدُ لكم لتزدادوا في طغيانكم تعمهون، وبذلك نكون نحن قد جمعنا جميع الخيوط، و أوقعنا العدد الأكبر من عملائكم وصولًا إلى الرؤوس المدبرة لكل ذلك.
التقارير تصلنا باستمرار عنكم، وعن غيركم. أضيفِ إلى ذلك أننا على حق، وأننا الوجه الخيّر من هذا الصراع، إننا من يريد أن يحق الحق بكلمات وأفعال، لذلك ننتصر دائمًا.

والآن، فيما يتعلق بك يمكنك التعاون معنا و ستسير الأمور على خير وستكونين بمنأى عن الكثير من المشاكل والأحكام القضائية، هذا ناهيك عن أحكام رب العالمين وعقابه لك في الدنيا والآخرة.

يستكمل المحقق: تفضلي قطعة من الشوكولا تبدو فاخرة، وأنت تبدين متعبة وربما جائعة.
يعود إلى مخيلتي بسرعة علبة الشوكولا التي أحضرها "نوح" إلى المطار قبل سفري تمامًا، مع بعض الهدايا كالقهوة والبهارات، طالبًا مني إيصالها إلى أحد الأمراء، هدية وعربون صداقة وامتنان .
يضيف المحقق: محاولات التهريب باستخدام حلوى وشوكولا من ماركات معروفة.
وكذلك في عبوات القهوة وفي البهارات على أساس طغيان رائحة البهارات على رائحة المخدرات ليست جديدة علينا.
يقظة موظفي الجمارك تكشف كل محاولات التهريب غير المشروعة.

يدخل محقق آخر، يخاطب المحقق الأول: وافني بكل المعلومات عن الأشخاص الذين هم على صلة معها، أو من المفترض أن تلتقي بهم، الفندق الذي كانت ستقصده، الأرقام الصادرة و الواردة والرسائل القصيرة على هاتفها. وكل من يمكن أن يكون صديقًا أو عدوًا لها.
وباشر في التنسيق مع مكتب الإرتباط والتنسيق في بيروت
يجيب: أمرك سيدي.

يتبادر إلى ذهني "مراد"، لا أعلم إن كان قد وصل الآن أو لم يصل.
اقترحَ عليّ أن أشاركه رحلة العمل هذه وقبلت، علها فرصة جديدة لنا نصلح ما فسد بيننا.
سيصل إلى مطار آخر في مدينة أخرى، قد حجز غرفة لكلينا هنا في الرياض، وبالتأكيد من السهولة بمكان أن يعرفوا كل ذلك وأن يصلوا إليه.

انتبهت من غفلتي، المحقق يصرخ في وجهي: ستواجهين عقوبة الإعدام.
أضعت فرصة التعاون مع زميلي السابق كان أقرب إلى صديق معك، لم تقدري ذلك.
أنا أبطش بلسان ويد من حديد.
وأنت متهمة بالكثير من التهم، ليس أقلها الإتجار بالمخدرات، وربما تجارة الأعضاء، والتنسيق مع جهات استعمارية للتأثير على إستقرار البلد وعلى الحكم الملكي فيها.

"أسلوب التضخيم: استفزاز الجانب الشعوري للمعتقل لتحريك الآليات الدفاعية اللاشعورية داخله، وجعله يعيش حال من الفزع والتوتر. أسلوب يعتمد على حيلة وضع السجين في حال من قلق نفسي وتوتر عصبي وعدم توازن في التفكير، من خلال تضخيم الأمر وتضخيم الاتهامات وتضخيم القضية، ليصبح أي اعتراف يُدلي به المعتقل شيئًاصغيرًا في نظره مقابل ما يتهمه به المحقق".

ستعدمين هنا، كوني على يقين من ذلك، وقبل ذلك ستذوقين ويلات السجن.
"أخطر ما في السجن أن تفقد إحترامك لذاتك، لأنك إن فعلت صارت رقبتك بيد جلادك، وصرت تتقبل منه الصفعة في وجه الكرامة على أنها قبلة في خدّ الرضى!!
أدركت أن تبديد وجع لا يتم إلا بتخيل وجع أشد ضراوة منه وأشد هولًا."

تذكرت ما يروى عن السجون وما قرأت.
غوانتنامو: السجن والرواية ل يوسف زيدان.
حياة دوستويفسكي فى المنفى و السجن فى سيبيريا: في ذكريات من بيت الاموات.
رواية جو، القوقعة، تلك العتمة الباهرة .

تذكرت مرتضى،طبيبي النفسي، يحدثني عن أدب السجون:
"يطلق مصطلح أدب السجون على الأعمال الأدبية التي تصوّر الحياة خلف القضبان والظلم الذي يتعرّض له السجناء، من خلال توثيق الكاتب يومياته وتجاربه البشعة داخل السجن".

مرتضى يحضرني مجددًا أو ربما هو من يستحضرني .

أتوجه اليه: مرتضى، أجد متعة بأن أناديك باسمك دائمًا،
لا أرى نفسي مريضتك، لا أعلم يقينًا من أنا ومن أنت وأي صلة تجمع بيننا..
في مواضع كثيرة أحدثك بخوالج شعوري، بالجزء العميق الشخصي الكامن من ذاتي الذي أحرص ألا يراه ولا يعرفه أحد.
كلنا بحاجة لذلك، رغم أننا قلما نحظى بهذا الترف.
ثمة ضرورة ملحة لمن يسمعنا لنستمر، لنتجاوز عقبات الحياة، التي هي ركن من أركانها. لا حياة من دون منغصات أو عقبات أو حواجز أو سقوط وفشل، ولكن لا بد بعدها من النهوض.
ثمة ضرورة ملحة لمن يكون سكنًا لنا، من يكون من أنفسنا بمعنى أن يكون بلسمًا لروحنا وانيسًا لها.
ثمة ضرورة ملحة لمن يشد على أيدينا في كل مرة، أن يبحث عنا عندما نبتعد، أن يشد عضدنا. أن يكون شريكًا في إعادة المحاولة للاستمرار مجددًا والسير والصعود على ما تهدم منا، لنكمل مسيرتنا ونبني من جديد، كل ذلك بهدى وتوفيق من الحق: خالق كل شيء بحكمة.
هو الله، أبانا الأقرب الينا من حبل الوتين، إن أمر ونهى وعاقب، لا شك في أنه أب حنون رحيم، وإن نهى فلحكمة لا ندركها دائمًا لقصور في رؤيتنا وفهمنا، وهو الذي وسع علمًا.
وإن أخّر عنا طلبنا، ربما لأن الوقت المناسب لإستثمار هذا العطاء بكليته لم يحن بعد، وأن المقدار المعطى أكبر وأوسع مما نطلب.

لطالما رأيت الله في حياتي نورًا أستضيء به، وقضاؤه تصرف أب حنون حكيم مع عياله، وهو المنزه عن التشبيه.
عندما تشعر بنور الله في قلبك، وتستشعر رغبة عارمة في ذاتك للمضي قدمًا، لتجاوز وإصلاح ما فسد منك، لا تفوت هذه الفرصة ولا تؤخرها.
سر قدمًا ولا تحرم نفسك نورًا وافاك، عله يكون مخرجًا من النفق الذي أنت فيه.
بعد أن تصل المشاعر إلى ذروتها، فإنها قد تتأرجح فى الاتجاه المعاكس، نحو الكلل وقلة الثقة وخيبة الأمل.
لا شك في أني أضعت هذه الفرصة، فرصة إصلاح ما فسد مني وما فسد في حياتي وشخصيتي وعائلتي وابني. أنظر إلى ما مضى من عمري وكلي ندم. لطالما شعرت في داخلي شيء يخبرني بيقين عن خسارة كل شيء في نهاية المطاف. كنت أبكي أحيانًا على وسادتي أعاند الخوف من فقد إبني ، أرتجف من فكرة الابتعاد عنه لكن الأمل أنني بخير في كل صباح يرسم لي بدايةً جديدةً مظلمةً وكأن اليوم منفصل عن كل ما مضى.
تعود ذكرياتي مع مراد لبدايات الحب معًا وما أمتعها وما أكثر الفرح بها، ليعكرها بسرعة ذكرى البعد والهجر والخصومة، ويعود ليحجب ذلك حنيني لمراد ولابتسامته ولحن صوته. أشعر بقلبي يذوب ما بين الحب، والندم، وأشعر بالوقت يطول وكأن لا نهاية لهذه اللحظات وما وضعت نفسي به.
لم يكن ينقصني و"مراد" الكثير لخلق دنيا وعائلة جميلة سعيدة بنّاءة. وربما فعلًا لا معنى لحياتي من دون عائلتي وهو عمادها.
هو جرح للجرح مجددًا، نار تلتهمني، وحيرة وشوق، رغبة بالهروب من نفسي أولًا، التي كانت خصمي، ومن كل شيء.

أحبني وأحب ابننا وتحمل بعدنا عنه. وثق بي لدرجة الغياب ورحل يصارع القدر ليصنع حياة كريمة لنا،

مراد كيف غفلت عن كونك الرجل الحقيقي بين أسراب من عرفت ، وكيف لم أدرك مدى حبك ، كان ينبغي أن أفهم بكل عناق بيننا أن الحب لم يمت، كان ينبغي أن أفهم كل نظرة وداعٍ عند سفرك، كيف كنت تجاهد الدمع، وأنك لازلت حبيبي ذاته.

ليتك حين صفعتني فهمتُ أن الخوف من الفراق والطلاق هو من أيقظ فيك ذاك الشرقي ونزعته للسيطرة على أمور بدت وكأنها تخرج عن سيطرته.

وهل أعجز من الندم في استعادة ولو يسيرًا مما نندم عليه ونحمل وزره بعد فوات الأوان.

ربما حصرت تفكيري وسعادتي وهدفي، في ضرورة وجودك قربي، بقيت في هذه الدائرة. لزمتها وعميت عن كل ما يحيط بي، وعن متعة الحياة نفسها. جعلت سعادتي وحياتي تدور فقط في فلك قربك الجسدي مني.

الفرصة قد تعود مجددًا!؟ لا أعلم...

سيعطيني القدر بعد فرصة ثانية، أو كان ذاك نور فرصتي الأخيرة وقد تلاشت بشدة ظلمات أفعالي. لا أعلم إن كان دمعٌ سيغسل كل ما عملت وإن كانت نار الشوق لابني ستطهرني مما أنا فيه.

قد تعلمت وتغلبت على الجهل بالثقافة ونسيت أن أكون إنسانة، حاربت كل المفاهيم القديمة بعدائية غبية حطمت بها ذاتي، لم أفرق بين صفات المرأة الشرقية المقدسة وبين مفاهيم خاطئة قيدوها بها، حاربت بحقد وخسرت...

يكتب مرتضى:

أستحضرك "مونيكا" في الكثير من الأوقات. يقول مرتضى، ربما تقولين ما أقول وتفعلين ما أفعل.

كثيرا ما أكتبك. وربما أسترسل في ذلك أيضًا، هي ليست مجرد ملاحظات أدونها لاستكمال قصتك المرضية، والتشخيص والعلاج، ولاحقًا المتابعات الطبية وتطور الالحال.

هي أوسع من ذلك فعلًا،

قد يكون أقل ما أكتب، هو ما ترويه لي، وأقرأه أنا بطريقتي، وبأفكاري وهواجسي. وأترك بعدها لخيالي لجامه.

وأكثر ما أكتب بنات أفكاري، صراعاتي النفسية، والاجتماعية والعقائدية. يومياتي برؤية وترجمة خاصة، أحداث وذاكرة تُدَون.

الكتابة، كما الكثير من الأفعال، الهوايات، الطقوس، التي ندأب عليها، نجد بها جزءً من ذاتنا المرهقة المنغمسة في الحطام الذي يحيط بنا. هي فائض حديث النفس مع ذاتها، نتعرف بها على شيء من أنفسنا.

الكتابة هي احتيال على الوقت، والحياة، ويقينا احتيال على الموت. لنخلد أنفسنا أو أقله نخلد إسمنا.

الم يكن حجر الفلاسفة، واكسير الحياة، ضالة القدماء. عقار أسطوري أو ما شابه، يُضمن بتناوله حياة أبدية أو شباب دائم، قد سعى إليه العديد من

ممارسي الكيمياء. وقيل أيضًا عن إكسير الحياة أنه يمكن أن يخلق حياة جديدة.

الكتابة، فن يمكن إتقانه مع التدريب والممارسة، ولكن بالنتيجة هي خلق، وإن كان فوق كل ذلك الخالق البارئ المصور.

الكتابة تطوير أفكار وهواجس، معان قد تكون موجودة على قارعة الطريق، كما يقول الجاحظ، معانً تلازمنا في تفاصيل يومياتنا، في معاناة من نعرفهم من أشخاص، أو نسمع حكاياهم على الألسن، أو حتى ما نقرأ في وجوههم وحركاتهم وردات فعلهم حتى وان كانوا مارة على طريق، أو موظفون في دائرة ، أو سياح على شاطئ.

نترجم بالكتابة، بعضًا من مشاعر وأحاسيس وأفكار وانفعالات ، نخطها على ورق بعد أن تأخذ حيزًا من تفكيرنا. نفضي ونبوح بها لمن يجدون فيها ضالتهم، أو سلواهم. ونترجم عنهم ما يجول في ذواتهم عندما تخونهم القدرة على تدوين كل ذلك على شكل حروف نابضة على ورق. هي تثمين ما تختزله الذاكرة وتغليفه وإظهاره بحلة جميلة.

بالكتابة، نجد أكثر من حياة أو ربما نصنع حيوات على مقاسنا أو مقاس أحلامنا وهواجسنا. نعوض قصور حياتنا الواقعية المادية واقتصارها على حياة واحدة فقط.

في الكتابة يعبّر الفرد عن ذاته، عن ميوله وأفكاره ومعتقداته واهتماماته وحتى انفعالاته. ينفث أحاسيسه، و يبني أفكاره وينسقها وينظمها. وقبل أن يبثها لقارئ، يبثها لنفسه، التي يدأب في البحث عنها وعن فؤاده، وعن الشخص الذي حلم أن يكونه، عله يصل إلى السلام النفسي، إلى الرضا.

في الكتابة نهرق شيئًا من ذاتنا في سبيل ما يمكن أن يكون أولًا، الطريق الذي نبحث عنه، ولاحقًا الهدف، وربما في النهاية ما يخلدنا أو يخلد أثرنا.

أسمع صراخًا مجددًا: أوردت المادة السابعة والثلاثين من قانون العقوبات في المملكة العربية السعودية:
عقوبة القتل تعزيرًا في تهريب المواد المخدرة، وتلقيها وترويجها وجلبها.
و تم هنا تشديد العقوبة للنتائج السلبية الفادحة التي تنعكس على المجتمع ككل.
إن الشخص الذي يجلب المخدرات من خارج المملكة و الشخص الذي يعمل على توزيع هذه المخدرات على المروجين بالمملكة، ألحَقَ النظام بهم أيضًا عقوبة القتل بالتعزير.

انطلقت في السعودية خلال المرحلة السابقة حملة واسعة لمكافحة مهربي ومروجي المخدرات في المملكة.
وكان مكتب الأمم المتحدة المعني بالمخدرات والجريمة يقول إن أكثر من نصف جميع كميات الكبتاغون التي تم ضبطها في الشرق الأوسط بين عامي 2015 و2019، كان في السعودية وحدها. وينتمي غالبية متعاطي المخدرات السعوديين إلى الفئة العمرية من اثني عشر إلى اثنين وعشرين عامًا.

ستعدمين هنا، كوني على يقين من ذلك.

وعلى جانب آخر من هنا ومن كل ذلك...

في غرفة ذات مساحة جيدة ولكنها غير رحبة.
وبالقرب من "كومود" يزدحم بأغراض شتى، يرقد سريره الأبيض، الذي يتكئ على الحائط خلفه، بلونه البني، يغطي منتصفه مساحة خشبية يكاد يفقؤها العديد من الثقوب والأجسام.
مستلقٍ، أمامه نافذة، قد تكون مغلقة وربما مفتوحة، يكاد لا يُرى منها شي.
ليل، ربما نهار، خلف تلك الستائر البنية الداكنة .
يجلس قبالته على المقعد قرب النافذة امرأة خمسينية وشاب عشريني بوجوه محروقة ورضوض .
تململ يمينًا ويسارًا، يكاد لا يستطيع الحراك بسبب تلك القيود.
وكأنه يتمتم : "ماما"
يفتح عينيه بثقل،
حروق شديدة أصيب بها.
حادث سير تعرضوا له عقب عودتهم من المطار، بعد أن أوصلوا "مونيكا" إلى صالة المغادرة.
عملت عناصر من الدفاع المدني على إخماد حريق شب في السيارة رباعية الدفع، إثر الحادث الذي وقع على أوتوستراد المطار في بيروت.

الحادث أسفر عن وقوع إصابات تم نقلها إلى المستشفى، "جاد" الأكثر تأذيًا، حروق شديدة قد أصيب بها.

19

عملت عناصر من الدفاع المدني على إخماد حريق شب في السيارة رباعية الدفع إثر الحادث الذي وقع على أوتوستراد المطار في بيروت.
الحادث أسفر عن وقوع إصابات تم نقلها إلى المستشفى، "جاد" الأكثر تأذيا، حروق شديدة أصيب بها.

سرير الغواية
تمت
مرتضى،.

في هزيع من الليل، تقلب حنين* الصفحة الأخيرة من مجموعة الأوراق التي أعطاها اياها مرتضى لأبداء رأيها وملاحظاتها وحتى مشاركتها ببعض الأفكار والعبارات.
ترسل رسالة قصيرة عبر "الواتساب" متوجهة لـ مرتضى:
انتهيتُ الآن من قراءة مسودة روايتك: سرير الغواية، شخصيات جمعتَها وأعطيتَها مواصفات وصنعتَ لها أحداثًا. تختلط ربما بواقعنا وحقيقتنا وحياتنا الواقعية.

*حنين ومرتضى شخصيات وأبطال رواية الكاتب السابقة: مدى قبلة.

ثم... ماذا لو وجدت بطلتك في طارق إحتواء وأمانًا، بدل الخطيئة؟
أو أن نوحًا كان حبًا صادقًا دون أنانية أو استغلال؟
أو أنها ترفَّعت عن نواقصها لترتقي بذاتها بمعزل عن حاجاتها وعن مراد...
كيف ستتغير حينها الأحداث والشخصيات.
وفي سياق آخر فلنقل مثلًا أن بوحها لم يكن لطبيب...
ثمة أحداثًا قد تكون عفوية، أو قصيرة وعابرة في سياق الزمن ولكنها تخلق فينا انحرافًا كيانيًا في الشخصية والحياة والمصير.
يبقى تساؤلًا مطروحًا، ماذا لو كانت حياتنا نحن رواية؟ ماذا لو كنا نحن شخصيات تُكتب أحداثها؟

تضيف حنين: روايتك، إنجاز جديد تضيفه إلى سجلك، قد تجيب به عن سؤالك المعتاد:
كم من وقتنا يجب أن يكون مثمرًا بالإنجازات؟
وما هو تعريف "إنجاز" ؟
قد تكون الإجابة: أن أي وقت تشعر فيه بالسلام النفسي والرضا عن الذات هو إنجاز بغض النظر عن قيمة ما فعلت وكيف قيمه الآخرون.
إستمر في كتابة يومياتك التي كتبت بعضها، ووثقت بعض أحداثها.
أرسلها لي عبر الايميل عندما تكتمل.
واستمتع في إجازتك القادمة وفي سفرك، ونحن على موعد بعد عودتك.

وتمسك حنين قلمها، وتكتب:

للقدر إشارات لا يفهمها الا القلب، تجبرنا أحيانًا على تصرفات غريبة لا ندرك جذورها إلى حين إدراك سحرها في المستقبل البعيد.
كان، حين يمر، يشد النظر اليه وكأن ما دونه صور ضبابية، لا المكان ولا كل من يحيط به بموجود .
براءة في وجهه، تذلل كبرياء الاعتراف بجاذبية حضوره، بساطة ملامحه، عيناه الواعدة الباحثة عن المجهول، المتعالية عن النظر إلى ايّ كان، تزيد سحره وترغم النفس على الغوص في بحره رغم معرفةٍ: بأن لا شاطئ للراحة أو النجاة معه.
بسمته المحفورة على شفتيه لا يمكن وصف تأثيرها، تضيء خديه كشمس ترغم، كل من تنعَّم بنورها، على ضحكة متعالية في القلب يُسمع صداها بين الأضلاع فتكسر حزنًا وتُنبت فرحًا.
مزاجيٌ، دائم الكآبة، عنيد، عصبي، وكل صفاته هذه محببة لحد الجنون ، يدمن جليسه كآبته ويثمل حبًا بعصبيته وبعناده، ليحيا مع حالاته ملها.
كفصول السنة حين تجتمع بيوم واحد لا يمكن الملل منه.

مختلف عن كل أشباهه، فيه كل الرجال ولا يشبه أي منهم، مثقف، أنيس معرفة. تخال الكون مختبيء بذاكرته، وتخاله هارب من قصص خيالية. إنسان يسكنه ألف إنسان.

يذيب القلب بحنيته، كلماته لحن منسجم مع النبض تهدي حياة تزهر في النفس.

قدرته على الانصات وتجميل مكانتك تكفيك عن العالمين.

زمن مضى منذ معرفته، وطيفه يمر أمام ناظريّ، في الاعماق شيء يخبرني أنه مختلف ، قريب جدًا رغم بعده.

دائمًا هناك إشارات تفهمها الروح؛ لكن يعمي عنها غباء إنسان وعدم قدرته على الإيمان بقلبه.

وحده المستقبل من يظهرها جلية، وحينها يصبح من الممكن قراءة كل شيء بوضوح تام.

لم كان ذاك الانجذاب؟ ولم كل ذاك الفضول؟

لكن ماذا بعد ؟

ولم تكذيب مشاعر، ذنبها فقط، أنها عصية على الفهم، خجولة في مواجهة الحقيقة ؟

كان يجب أن ألتفت إليها، فما الإنسان إلا عقد ومشاعر ثائرة متحاربة فيما بينها.

إن قُيّد كل شيء بالواقع، مات من دون أن يحيى، مات ميتة عاقل مأسوف على عمره، مضى من دون جنون...

20

خاتمة

ان جميع الشخصيات والأحداث الواردة في هذه الرواية هي من محض الخيال. وأن أي تشابه أو ترادف مع الواقع هو من محض الصدفة.
ان هذه الرواية ليست بغاية الوصول إلى نهايات سعيدة او الإجابة عن بعض الأسئلة بقدر ما هي طرح لبعض الأسئلة والقضايا الاجتماعية .
بعض ما فيها من دراسات سيكولوجية كان متأثرًا بمؤلفات الدكتور مصطفى حجازي:

- التخلف الاجتماعي مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور.
- الإنسان المهدور: دراسة تحليلية نفسية إجتماعية.

وذلك بشكل خاص في الفصل السادس والثاني عشر.
وقد نقلت بعض العبارات كما وردت في الكتاب وقد أشير اليها بمزدوجين.